البشر

في نقد المقدمات العشر

تأليف فقير ربه واسير ذنبه

(عثمان بن منصور)

طبع : الشركة التونسية لفنون الرسم

الحمد الله الذي رفع كلامه عن ان يوتي بمثله والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبين لمراده وفضله وعلى آله وصحبه المبرزين في حلبات الفضائل والمكارم وعلماء امته الممهدين للدين بالاخلاص في العمل والعزائم اما بعد فانه اهدى الى الكتاب المشتمل على المقدمات العشر للتفسير المستور المنسوب للعلامة الشيخ سيدي الطاهر ابن عاشور المسمى « تحرير الفهم السديد وتنوير الفكر الجديد بتفسير القرآن المجيد » فطالعته بتامل واشتياق وتمتعت في رياض حسنه المآقي والاحداق وشكرت المهدي الذي هو من فضلاء النشء الجديد على الهدية السارة والبسيرة البارة وكنت في مطالعتي له مونسا بالوحدة غالبا وببعض الجلساء احيانا فجرت بيني وبينهم محاورات فيه وكانت تنتهي بوفاق تارة وبخلاف اخرى ربما اشرت لبعضها وكان احدهم كلما انتقدت شيا بحضوره قام ضاحكا منشد البيت المشهور وهو :

واذا ما خلا الجبان بارض طلب الطعن وحده والنزالا

فادركتني سورة الغضب يوما ورددت عليه بقولي

كن شجاعا فسوف ابرز نقدي فاردد السهم ان اردت الجد الا

فذهب مغاضبا وصار مني الى الآن هذا الصاحب بل الصديق العنيف بعد ان ملكني باحسانه وساعدني في اوقات الشدة باخلاص لا راغبا ولا راهبا وانا آسف لغضبه وجدير بان اتمثل بما كان قاله ابو الطيب في ابي العشائر احد عظماء دولة بني حمدان عتابا له على الاستخفاف بعد التوقير والجنوح الى وضعه في مقام التحقير وهو :

ونفسي له نفسي الفداء لنفسه ولكن بعض المالكين عنيف

وهاؤم النقد لا اريد عليه جزاء ولا شكورا ان اصبت ولا اوثر اصرارا على الباطل ان اخطات ورحم الله من قال :

على انني راض بان احمل الهوى واخلص منه لا علي ولا ليا

والله يقينا مما يخشى منه على الدين والعرض ، وينقذنا من غضبه يوم الجزاء والعرض ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

مقدمة الكتاب

هذه كلمات بعضها يتعلق بارشاد المطالعين للكتاب الى الفرق بين الكلامين المنقود والمنقود به وبعضها يتعلق بذكر بعض مقدمات التفسير وان لم تسم بهذا الاسم فاقول كل صفحة من كلام المؤلف عليها نقد يكتب عددها ويوضع تحتها كلامه بين هلالين او نجمتين ثم يذكر تحتها كلام الناقد مفصولا عنه خاليا مما احيط به كلام الاستاذ حتى لا يختلط الكلامان وهكذا الى النهاية

وقد ذكرت في « البشر » جميع المواضع التي يتعلق بها النقد مستوفاة من غير اختصار فكانت ثلاثة وستين مبحثا وذلك لامرين احدهما مراعاة من ايديهم فارغة من كتاب الاستاذ ثانيهما دفع الاتهام بقصد السوء في التقتير وادعاء جعله سترا تتوارى خلفه اصابة المنقود وخطا الناقد خصوصا في زمن يرغب اهله في ظن السوء بمن لايرغب في الشهرة ولا يركب للرياء صهوة مهرة فهو اجدر من ابى الطيب بقوله فيه

اتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

ولذا قال صاحب مناهل العرفان الكتاب الذي كاد ان يبلغ الغاية القصوى في الافادة والاجادة قال لافض فوه ولا خاب قلمه « فاننا اصبحنا في زمان افتتن كثير من الناس فيه بالاسماء والرتب والاموال والنشب وباتوا لايعرفون الرجال بالحق انما يعرفون الحق بالرجال فالباطل ان صدر من فلان النابه فهو عندهم حق وزين والحق ان جاء به فلان الخامل فهو عندهم باطل وشين وهكذا اختلت الضوابط وانقلبت الموازنين ا ه

ويقول الفقير ان الخلق الذي ذكره صاحب المناهل كاد ان يعم الخبيث والطيب فلا تستاصله قوله ولا تاباه وزارة دولة

حتى الكلاب اذا رات ذابزة حنت اليه وحركت اذنابها
واذا رأت يوما فقيرا معدما نبحت عليه وابرزت انيابها

ولهذا اخذنا الاحتياط كي لا يغمرنا القدح ولولا هذا لتركنا النقل اجتنابا لتوفير المعاليم في وقت ضعف وشح وبعد فان مقدمات التفاسير كثيرة بعضها في كتب خاصة كالاتقان في علوم القرآن للامام السيوطي ومناهل العرفان في علوم القرآن لصاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بكلية اصول الدين الازهرية وهما كتابان مطبوعان فالاول بحر زاخر وذخر فاخر والثاني فلك نجوم . اشراقها هاد وحركاتها رجوم . الا ان تواضع صاحبه كاد ان يجعل من يتانسون بالتعاظم ويستوحشون

من التواضع كاد ان يجعلهم فيه من الزاهدين وهناك كتب اخرى قديمة استمد منها صاحب الاتقان وزاد عليها ولا ادرى شانها مع الطبع هل دخلت دائرته او نزحت عنها وفي الاتقان ما حوته وزيادة عليه الا ان لها فضل السبق والامداد هذا وان بعض المقدمات التفسيرية ذكرها اصحابها في فواتح تفاسيرهم ولم يفردوها بكتاب خاص ومن اولئك ابن جزى والالوسى والقرطبي وغيرهم ولذلك فغزارة مواد علوم القرآن في التآليف تمكن بالاتقان وما ذكر معه من الاجادة والاتقان والسلام

محاورة حول تسمية كتاب الاستاذ

قد تحدث الناس عن الاسم وهو « تحرير الفهم السديد وتنوير الفكر الجديد بتفسير القرآن المجيد » فقالو انهم فهموا من هذا الاسم ان الكتاب احتوى على تفسير طائفة من آي القرآن خصها الاستاذ بالبحث والتفسير او لوفرة تعلقها بحالة المسلمين الاجتماعية اليوم عموما او خصوصا قصد اصلاحها او لنمو الاختلاف فيها بين المفسرين واختفائها عليهم فاراد كشفها وايضاحها وقد منعهم من اعتقاد ان الكتاب تفسير كامل كما يدل عليه اسمه صغر حجمه وهم غاضبون على هذه التسمية التي ضللتهم عن موضوع الكتاب وشوقتهم اليه فاشتروه فلم يجدوا فيه ضالتهم التي وعدهم بها اسمه وقد نسبوا بذلك للاستاذ مقاصد تجارية وسياسية والحقيقة في نظري والله اعلم غير ذلك وانه ليس في صنعه الا قصد شريف ويرفع الاشكال انه خفى عليهم ان الامر دائر على حذف مضاف وجعل الباء ظرفية او جعلها سببية ولا حذف وهذا اولى لانه اذا استوى التقدير وعدمه فعدم التقدير احرى فيكون المعنى على الوجه الاول في مقدمات تفسير الخ وعلى الثاني بسبب تفسير الخ وللناس الاجوبة ثالث وهو تنزيل هذه المقدمات منزلة التفسير لشدة علاقتها به وقربه منها بروزا فصارت كانها هو وكانه هي وهذه فلسفة بلاغية بيانية والاولان فلسفتهما نحوية لغوية والوجه الاخير اقرب لقصد الاستاذ والله المستعان لكن لما صرحت بهاته الاوجه للبعض منهم اشمازوا وقال زعيمهم في الوقاحة لا يناسبك ان تهزل بعد ما بلغت من الكبر عتيا فاجبته انه لا يكون الهزال غالبا الا في هذه السن ولهذا سمتها العرب دقاقة الاعناق فاعرض محيا بجملة املاها عليه سوء ادبه وهي لاعجبا في صدور خرافة من خرف فقلت اعاذنا الله مما نسبته الينا ما حيينا وكانت النتيجة افتراقنا من غير وفاق وبعد خطوات ناداني فاجبته فقال خذ مني الجواب الصحيح عن اعتراضنا البليغ الفصيح قل ان التسمية اقتضاها حب العمل بما يستحسنه الفكر الجديد وهو ما يسمى بخداع العناوين فقلت كفى وحسبنا الله ونعم المعين

الصفحة الخامسة

« وشهد له الراغب والمحتار والحاسد »

وزن افتعل موجود في اللغة الا انه سماعي فلا يصح زيادة همزته وتائه فيما لم يسمع فيصح ان يصاغ هذا الوزن بزيادتيه فيما اسمع فيقال انتصار واقتدار وانتقاد واعتزام من نصر وقدر ونقد وعزم ويكون مثل افتطار وابتكاء واضطحاك خطأ لانها لم تسمع فقول الاستاذ « المحتار » لحن لغوي سبقه إليه شاعر الاشواق عمر بن الفارض في قوله

وما احترت حتى اخترت حبك مذهبا وكذا بن عابدين في تسمية حاشيته على « الدر المختار » « رد المحتار ودليل المخطىء عدم وجوده في كلام من يعتد به في الاثبات وفي الكتب اللغوية التي منها المختار والصحاح والمصباح ولسان العرب والقاموس المحيط وشارحه والمحكم لانها تذكر المجرد ومزيده ولا تقتصر عليه لاحتياج مزيده الى السماع وقد استفدت ما ذكر من مجموع مجلة المنار العلمية لصاحبها الاستاذ رشيد رضا فليراجعه من لم يقنع

« اما بعد فقد كان اكبر امنيتي منذ امد بعيد اقراء تفسير الكتاب المجيد الجامع لمصالح الدنيا والدين وموثق شديد العرى من الحق المتين »

قرا احد الساردين لفظة « موثق » مخفوضة فلحنته فادعى انه محق مستدلا بقول ابن مالك

وحذفت رب فجرت بعد بل والفا وبعد الوا وشاع ذا العمل

ومنشدا بعده قول امرئ القيس وليل كموج البحر ارخى سدوله

فقلت اي علاقة بين البيتين وبين هذا الخطأ البين فان الاستاذ لم يرد الا المعنى الذي يساعد عليه الرفع وهو جعلها وصفا لغويا للكتاب المجيد فقال لو اراد هذا لقال « والموثق الشديد العرى » بالخفض او « والموثق شديد العرى » بنصب شديد وتنكيره لوجوب التطابق بين النعت والمنعوت في التعريف والتنكير اذ يحسن ان يقال انتفعنا بالرجل العالم والكريم ويقبح ان يقال بالرجل العالم وكريم فقلت هذا هو الذي يمنعنا من خفض « موثق » لان الخفض على تقديرك يفسد المعنى وعلى اعتباره نعتا يغضب النحويين فقال ما الحيلة حينئذ فقلت هي ان نقراه مرفوعا ونجعله خبر الضمير مبتدا عائد على الكتاب المجيد فقال هذا لا يخلو من ركاكة وسوء تعبير وانحطاط ذوق ولكن

اذا لم تكن الا الا سنة مركبا فلا يسع المضطر الا ركوبها

فقلت لعل تطويلنا في هذا المبحث او فرر كاكة

الصفحة السادسة

« وكنت احادث بذلك الاصحاب والاخوان واضرب المثل بابي الوليد بن رشد في اتمام كتاب البيان ولم ازل كلما مضت مدة يزداد التمني وارجوا نجازه الى ان اوشك ان تمضي عليه مدة الحيازة فاذا الله قد من بالنقلة الى خطة الفتيا واصبحت الهمة مصروفة الى ما تنصرف اليه الهمم العليا »

اعترض على المؤلف بعض قدماء تلامذته ممن شاركونا في الشيب والهرم وحنكتهم التجارب وانكشفت لهم برعودها المغان بانه تشبه بقاضي قرطبة مع الفرق بين حاليهما اذ ان ذلك القاضي ابن رشد تقلدها بالحاح بعد الشروع في تاليفه الفقهي وفارقها فرحا وهي تندب حظها بخلاف قاضي تونس فانه حن اليها ولم يقعد به عن تسنمها الى ذلك الوقت الاصغر سنة لان ولاية الشبان في امثالها مغضوب عليها في ذاك الزمان وتولاها قبل الشروع في تفسيره وامتلا بها سرورا ثم فارقها مستوحشا اسفا فكيف يصح هذا التشبيه وفي نظري ان هذا النقد شديد غير سديد اذ لا يشترط التساوي بين المشبه والمشبه به من جميع الجهات والا لم يصح ان يشبه الادمي بالاسد او بالبحر وهناك آخرون قالوا ان الناس اعتقدوا انه سيسعى سعيا حثيثا في اصلاح المحكمة الشرعية لشدة تذمره من اجراءاتها وبطئها وسوء تراتيبها وقلة الضبط واستيلاء الامهال والاهمال حتى صرح بانه يتمنى خطة كبرى فيها ليتوجه لاصلاحها من جميع نواحيها وقد شاع عنه هذا بين تلامذته وغيرهم قبل الولاية فاشتهر بين الخاص والعام ولهذا اشتد الفرح وعظم الطرب وورد على القرائح الطلب ففاضت بالتهنئة شعرا ونثرا حتى تجمع لقاضي ذلك العصر ما يملا ديوانا لو طبع لكانت له قيمة ادبية حيث كان من شعرائه فخر تونس وبدرها العلامة الجليل شيخنا الخضر بن الحسين شيخ الازهر الآن متعه الله بالعافية وبهذه المناسبة فاني اذكر ما علق بذهني من قصيدته ترفيها على القارى وجلبا لمتعته وان كان قليلا قال لافض فوه

بسط الهناء على الفؤاد جناحا	فاعاد مسود الحياة صباحا
ايه محيا الدهر انك مونس	ما افتر ثغرك باسما وضاحا
ونعهد ما اوحشتنا في سالف	خالا بوجنتك المضيئة لاحا

الى ان قال

فاسدل عليها ثوب جدانها	امست تمج كما علمت مزاحا

ولنعد الى حكاية قول المنتقدين قالوا مكث المؤلف في الخطة مدة الحيازة كما ذكر ولم يظهر عليها اثر ثوب الجد ولو في دائرته الخاصة التي يتمكن فيها من

الاصلاح متى اراد بل ازداد سوء الحال وتمكن الياس من الابلال هذا واني اجيبه هؤلاء من غير تحيزا وحمية جاهلية بانه ربما عاقته موانع لا يقدر على صدها وان قول الشاعر

ماكل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

كفيل بابداء العذر وابداء ما لنا وابداء المسئول تلقاه فقد كتاب وقال صاحب الكلمة ذكرت عرضا ولم تكن غرضا فالاولى حينئذ ان نقول فيما مضى عليه الزمان واقبره مرور الايام ما قاله الشاعر من الدنيا

فكان ما قد كان ليس بكائن وكان ما هو كائن قد كانا

اذ لا يبقى شي بدار الغرور يوم القيامة كفيل بتمحيص الامور

الصفحة العاشرة

« فلذلك قال العلامة الزمخشري في خطبة الكشاف الحمد لله الذي انزل القرآن كلاما مؤلفا منظما ونزله على حسب المصالح منجما » فقال المحققون من شراحه جمع بين انزل ونزل لما في نزل من الدلالة على التكثير الذي يناسب ما اراده العلامة من التدريج والتنجيم وانا ارى ان استفادة معنى التكثير في حال استعمال التضعيف للتعدية امر من مستتبعات الكلام حاصل من طريق عدول المتكلم البليغ عن المهموز الذي هو خفيف الى المضعف الذي هو ثقيل فذلك العدول قرينة على المراد وكذلك الجمع بينهما في مثل كلام الكشاف قرينة على ارادة التكثير »

قال بعض الملاحظين اني لا ارى فيما رآه المؤلف شيئا زائدا على ما رآه المحققون من شراح كلام الكشاف وغيرهم وعبارته توهم خلاف ذلك وانه راى خاص ينبغي ان يسجل باسمه وينسب اليه والحقير يجيب عن هاته الملاحظة بان الاستاذ قد لا يخطر بباله ما فهمه هذا الملاحظ المماكس في التعبير ولو قيلت عوض « وفي راي » عبارة اخرى تؤدي المعنى المراد من غير ايهام لاسترحنا من هاته المماكسة وقد يكون اختيارها لما فيها من التفخيم والامر هين على كل مسالم

« وعن الشهاب الدين القرافي في اول انواء البروق الى بعض مشائخه ان العرب فرقوا بين فرق بالتخفيف وفرق بالتشديد فجعلوا الاول للمعاني والثاني للاجسام بناء على ان كثرة الحروف تقتضي زيادة المعنى او قوته والمعاني لطيفة يناسبها المخفف والاجسام كثيفة يناسبها التشديد واستشكله هو بعدم اطراده وهو ليس من التحرير بالمحل اللائق بل هو اشبه باللطائف منه بالحقائق اذ لم يراع العرب في هذا الاستعمال معقولا ولا محسوسا وانما راعوا الكثرة الحقيقية او المجازية كما قررناه ودل عليه استعمال القرآن الا ترى ان الاستعمالين ثابتان في

الموضع الواحد كقوله تعالى « وقرآنا فرقناه » قرىء بالتشديد والتخفيف وقال تعالى حكاية لقول المؤمنين « لا نفرق بين احد من رسله » وهي تفرقة معنوية لا جسمية كما هو واضح

وقع اختلاف في معاد الضمير فقال البعض هو كلام القرافي وقال غيره هو كلام استاذه وقال آخر يرجع لاحدهما لاعلى التعيين وانه قصد به الاجمال جريا على عادة البلغاء وسنة الفصحاء فهو شبيه بما قاله بعضهم في اعور خياط يسمى عمرا داعيا له أو عليه مخرجا للدعاء في صورة التمني وهو :

خاط لي عمرو قبا ليت عينيه سوى

ثم ان من قالوا انه عائد على القرافي اختلفوا في متعلق الاعتراض هل هو ذات كلامه او لازمه الذي هو الخدش في كلام شيخه وضعف حرمته عنده وكان الاليق به ان يغضى عن الزلة وخالفه آخر وقال ان كلام القرافي غير صحيح في نظر الاستاذ لذاته لا للقدح في كلام شيخه وعند ذلك رفعت صوتي وسوطي قائلا ان المحكوم عليه بالنزول في محل غير لائق هو كلام شيخ القرافي قطعا وما فهمتموه عند اختلافكم في معاد الضمير مجرد وهم لان جعله محل احتمال مقصود للبلغاء ينافي قصد التعليم والبيان والقول بان كلام القرافي معترض لاعتباره عقوقا غير صحيح لان مقام التحقيق ارفع من مقام المجاملة الا مع الاسراف في التشنيع والاقامة على التقريع وقولكم انه غير صحيح لذاته ليس له معنى لان كلام الاستاذ لا ينافيه ولا يصلح ان يكون ردا عليه بل هو كشرح له وايضاح لان كلام القرافي لا ينافي جعله من اللطائف واغلبيته وانما ينافي اطراده واستمراره وعدم تخلفه فلم يبق الا وجوب عود الضمير على كلام شيخ القرافي وتوجه الاعتراض عليه ونقول عندئذ ان لشيخ القرافي ان يجيب بان ما اتى في المعاني مثقلا فلتشبيهها بالاجسام وما اتى في الجسوم مخففا فلتشبيهها بالمعاني وما قلتم من ان العرب راعوا الكثرة في المثقل والقلة في المخفف ليس من التحرير بالمحل اللائق فصار الاولى اعفاء القلم من اجهاده فيما لا طائل تحته والله يهدي من يشاء الى سراط مستقيم

الصفحة الحادية عشر

« وفي عد التفسير علما تسامح اذا العلم اذا اطلق اما ان يراد به نفس الادراك نحو قول اهل المنطق العلم اما تصور واما تصديق واما ان يراد به الملكة المسماة بالعقل واما ان يراد به التصديق الجازم وهو مقابل الجهل » وهذا غير مراد في عد العلوم واما ان يراد بالعلم المسائل المعلومات وهي مطلوبات خبرية يبرهن عليها في ذلك العلم وهي قضايا كلية ومباحث هذا العلم ليست بقضايا يبرهن عليها

فما هي بكلية بل هي تصورات جزئية غالبا لانه تفسير الفاظ واستنباط معان فاما تفسير الالفاظ فهو من قبيل التعريف اللفظي واما الاستنباط فمن دلالة الالتزام وليس ذلك من القضية »

من شأن الاستاذ ان لا يحيد عن السبر والتصفية والضبط والاستيعاب ولو فيما يحسن فيه الاغضاء والافاي مانع من عد التفسير علما بناء على غير الغالب في نظره حيث قال بل هو تصورات جزئية غالبا فهذا صريح في انها قد تكون بخلاف ذلك على انه لا يسلم له التسامح في عد التفسير علما ولو الغينا هذا الاعتبار سواء اريد بالعلم الادراك او التصديق الجازم او المسائل المعلومة اذ كل الصيد في جوف الفرا ولو اردنا الاستدلال لاجهدتنا الاطالة في القشور وادتنا الى نبش كتب المنطق والحكمة لنثبت انه علم او غير علم وهل في اطلاقهم وتسميتهم تسامح او تحقيق ولو فعلنا هذا او سودنا صحفا لاثباته او نفيه لا غضبنا الفكر الجديد الذي يبغض التافه من البحوث فليعذرنا الاستاذ اذ لا يرضيه غضبه وآخر ما نقوله هنا ان الطبقة العليا من علماء المسلمين سموه علما فقولهم اولى بالتقديم على قول قدماء الحكماء والمناطقة واحق بالمراعاة من اصطلاحاتهم واثارة الاعتراضات التي لا تخطر الا ببال اصحاب المنطق والمقولات خالية من الفائدة لا سيما عند مريد الاختصار التارك لاجله كثيرا مما تشتد اليه حاجة طالب التفسير ومن طالع « الاتقان في علوم القرآن » عنده الخبر اليقين هذا ومن العجب الاقتصار على ذكر تفسير ابي عبيدة لبيت الاعشى من غير ايضاح بتطبيق الالفاظ على المعنى فهو اولى من مما كسته الخلف للسلف في تسمية التفسير علما هذا نظري الكليل وللاستاذ اجله الله ان يقول .

ونُنكر ان شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول
ولمن سموه علما ان يقولوا البيت ايضا اذا قيل لهم فيه تسامح

الصفحة السادسة عشر

« استمداد العلم يراد به توقفه على معلومات سابق وجودها على وجود ذلك العلم عند مدونيه لتكون عونا لهم على اتقان تدوين ذلك العلم عند مدونيه لتكون عونا لهم على اتقان تدوين ذلك العلم وسمى ذلك في الاصطلاح بالاستمداد على تشبيه احتياج العلم لتلك المعلومات بطلب المدد والمدد العون والغواث فقرنوا الفعل بحرفي الطلب وهما السين والتاء »

توقف العلم على معلومات لا ينبغي ان يقال فيه استمداد له كما هو واضح

وانما الاستمداد توجه النفس الى تلك المعلومات والاستخراج منها ما يتاتى به اتقان ذلك العلم وتدوينه والاصابة فيه بدلالة السين والتاء على هذا المراد فعبارة الاستاذ فيها تسامح اوضح من تسامح المفسرين في تسميتهم التفسير علما واشد منها احتياجا الى الجواب

الصفحة السابعة عشر

« واما استعمال العرب فهو التملي من اساليبهم في خطبهم واشعارهم وامثالهم وعوائدهم ومحادثتهم ليحصل بذلك لممارسه المولد ذوق يقوم عنده مقام السليقة والسجية عند العربي القح وهذا كما قلناه آنفا شيء وراء قواعد علم العربية وعلم البلاغة به يحصل انكشاف بعض المعاني واطمئنان النفس لها وبه يترجح احد الاحتمالين على الآخر في معاني القرآن ومن اجله نرى ائمة التفسير يكثرون من الشواهد من شعر العرب على الاستظهار في معاني القرآن الا ترى انه لو اطلع احد على تفسير قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء » وعرض لديه احتمال ان يكون عطف قوله ولا نساء على قوله قوم عطف مباين او عطف خاص على عام فاستشهد المفسر على ذلك بقول زهير

وما ادري وسوف اخال ادري اقوم آل حصن ام نساء كيف تطمئن

نفسه لعطف المباين دون عطف الخاص على العام »

لا ادري مراد الاستاذ بهذا الكلام الابتر عند من لم يتعودوا بممارسة الكلام الغامض ايريد انه يستمر داؤه ويعسر دواؤه فيبقى مترددا بين الامرين الى ما شاء الله وهذا هو الظاهر حيث استبعد الاستاذ الاطمئنان وراى وقوعه داعيا للعجب كما تدل عليه كلمة « كيف » ام يريد ان الذوق الصحيح الصريح والتملي من استعمال العرب فحسب هو الذي يدفع حيرته ويقوده الى الحمل المراد في الآية الله اعلم بمراده فما في القلوب لا يدريه الا علام الغيوب ولعله قصد ان يقول بعد قوله « دون عطف الخاص على العام » « الا با لالتجاء الى الذوق العربي والعلم منه انه من عطف المباين لا من عطف الخاص عن العام » والذي رمى بالكلام في هذا التعقيد جهل المشار اليه وحذف جواب ولو قد بلغنا مقصوده ان شاء الله فان اصبنا فبفضله وان اخطانا فمن صومنا عن اكل الفستق بالعسل عجز الازهدا

الصفحة الثامنة عشر

« قال القرطبي سئل ابن عباس عن السنة في قوله تعالى « لا تـأخذه سنة ولا نوم » فقال النعاس وانشد قول زهير

لا سنة في طوال الليل تاخذه ولا ينام ولا في امره فند

فما يؤثر عن احمد بن حنبل رحمه الله انه سئل عن تمثل الرجل ببيت شعر لبيان معنى في القرآن فقال « ما يعجبني » فهو عجيب وان صح عنه فلعله يريد كراهة أن يذكر الشعر لاثبات صحة الفاظ القرآن كما يقع من بعض الملاحدة وروى ان ابن الراوندي « وكان يزن بالالحاد » قال لابن الاعرابي « اتقول العرب لباس التقوى » فقال ابن الاعرابي « لاباس لاباس واذا انجى الله الناس فلا نجى ذلك الراس هبك يابن الراوندي تنكر ان يكون محمد نبيا افتنكر ان يكون فصيحا عربيا »

تعجب الاستاذ مما نسب لابن حنبل ولا ينبغي ان يعترض عليه بما ثبت عن ابن عباس لان ابن حنبل مجتهد ايضا ولان زمنهما مختلف فشتان ما بين عصر الصحابة وما يقرب منه وبين عصره الذي اشتعلت فيه نيران الفتن وبرز قرن الشيطان وظهر ابن الراوندي وامثال امثاله فاستحب ذلك الامام طمس معالم الدس بقول من في قلبه مرض هـذا اللفظ غير عربي وذاك المركب غير صحيح وذلك المعنى لا يعبر عنه العرب بما عبر عنه القرآن وراى التزام الاستدلال على صحة كلام العرب المخلوقين بكلام رب العالمين فيحسن عنده تفسير ما في البيت بما في الآية لا العكس فالا ولى بالاستاذ اسقاط قوله فهو عجيب وان صح عنه فلعله الخ ثم لا يعزب عن ذهن اللبيب ان ابن الاعرابي قادر على افحام ابن الراوندي بغير ما اجابه به لكنه عدل عنه نزولا على المعنى الذي ارادة الإمام قاصدا تقليده ان تعاصرا او واقعا عليه من غير قصد ان تقدم او تاخر وساقته اليه الفطرة السليمة من غير ان يعلم مذهب الامام رضي الله عنه فما اصح علم من تقدم ولا يخفى ان ورع ابن حنبل وادبه سارت به الركبان وهذا لا ينافي طلب الاطلاع على الآثار العربية من قصص واخبار واشعار ممن يريد التعمق في فهم القرآن لانها شبه مستودع لثروة لغة القرآن غير ان واجبنا الاكتفاء باعتقاد انه من عند الله سالم المعاني والالفاظ صحيح اللغة فصحيها بليغها ولو لم نطلع على ما يؤيده منها في هذا فاعتناؤنا بها واجب وجنوحنا اليها بالنسبة للقرآن كجنوح ابراهيم عليه السلام الى رؤية احياء الموتى. صقل الله بصائرنا حتى ينيرها تعبيره ويحييها عبيره

الصفحة التاسعة عشر

« ويدخل في مادة الاستعمال العربي ما يؤثر عن بعض السلف في فهم معاني بعض الآيات على قوانين استعمالهم كما روى مالك في الموطا عن عروة ابن الزبير قال « قلت لعائشة وانا يومئذ حديث السن ارايت قول الله تعالى ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما فما على الرجل شيء ان لا يطوف بهما فقالت عائشة كلا لو كان كما تقول لكانت فلا جناح عليه ان لا يطوف بهما انما نزلت هذه الآية في الانصار كانوا يهلون لمناة الطاغية وكانت حذو قديد وكانوا يتحرجون ان يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جاء الاسلام سألوا رسول الله عن ذلك فانزل الله ان الصفا والمروة الآية » فبينت له مثار شبهته الناشئة عن قوله تعالى « فلا جناح عليه » الذي ظاهره رفع الجناح عن الساعي الذي يصدق بالاباحة دون الوجوب »

الصديقية وعروة رضي الله عنهما لا يند عن طبعهما ولا يشتبه عليهما مراد الله من آية الصفا والمروة من حيث العربية والاستعمال لان سائغان متساويان لو ان السعي بينهما غير مطلوب سواء قيل ان يطوف او ان لا يطوف وطريقة الاستعمال لا يجهلها عروة وما حمله على اعتقاد ان الطواف بهما غير مطلوب الا جهل سبب النزول فتوهم شبه التناقض بين كونهما من شعائر الله ووقوع الطواف بينهما وبين رفع الجناح على الطائف وبنى عليه جواز الترك لتكون في نزولها فائدة غير معلومة من قبل ولو اقتصرت ام المؤمنين على بيان سبب النزول لكفاه ولكنها زادته ايضاحا بعد ايضاح فهو يومئذ لا يجهل الاستعمال ويهتدي اليه عند علمه بطلب الطواف وسبب النزول ولو لم تذكره عائشة رضي الله عنها وحمله صحيح لولا ذلك وقد وردت قراءة النبيء صلى الله عليه وسلم « ان لا يطوف » عن ابن مسعود فاضطروا الى حمل لا النافية على الزيادة فرارا من منافاة الطلب الثابت بالسنة فالمثال لا علاقة له بجهل الاستعمال واذا كانت الامثلة غير موضحة لما يراد بيانه او موقعة في اللبس فمن الرشد تركها واقامة الاعتراض عليها ان ذكرت خلافا لمن قال مولعا بالسجع البحث في المثال ليس من داب الرجال وهي دعوى اصقع من الثلج فوق رءوس الجبال وقد راعينا في التنفير منها والصد عنها ذوق الفكر الجديد ولنختم باننا راجعنا بعض نسخ الموطا القلمية والمطبعية فلم نجد لمناة وصفا بالطاغية في في كلام عائشة رضي الله عنها فنسبة الاستاذ ذلك اليها اشتباه قطعا

« قال ابن عطية عن عائشة رضى الله عنها ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من القرآن الا آيات معدودات علمه اياهن جبريل قال معناه في مغيبات القرآن وتفسير مجمله مما لا سبيل اليه الا بتوقيف قلت او كان تفسير لا توقيف فيه كما بين لعدى بن حاتم ان الخيط الابيض والخيط الاسود هما سواد الليل وبياض النهار وقال له انك لعريض الوسادة وفي رواية لعريض القفا »

إني اسائل الاستاذ اجله الله افلا يجوز ان يكون ما بينه لعدي داخلا فيما ذكر ابن عطية عن ام المؤمنين ويكون ما فهمه عدي جائزا ان يراد من القرآن اولا التوقيف ويكون وصف عدي بعرض الوسادة لاشتهار المراد التوقيفي عند الصحابة وتقصير عدي في الاطلاع عليه والعمل به

« واما اخبار العرب فهي من جملة ادبهم وانما خصصتها بالذكر تنبيها لمن يتوهم أن الاشتغال بها من اللغو فهي يستعان بها على فهم ما اوجزه القرآن في سوقها لان القرآن انما يذكر القصص والاخبار للموعظة والاعتبار لا لان يتحادث بها الناس في الاسمار فبمعرفة الاخبار يعرف ما اشارت له الآيات من دقائق المعاني فنحو قوله تعالى « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا » وقوله « قتل اصحاب الاخدود » يتوقف على معرفة اخبارهم عند العرب »

لا اظن ان احدا في عصرنا يقول ان الاشتغال بها غير مفيد ولو قيل ذلك في الماضي فما توهمه الاستاذ غير موجود الآن ويمكن وجوده في المستقبل اذا اعتنى المسلمون باللب واعرضوا عن القشور فتكون نصيحة الاستاذ الان نافعة لهم في المستقبل ان شاء الله. اما في حالتنا فهي غير محتاج اليها فعصرنا عصر الشوق اليها والى غيرها من حكايات وروايات واشعار والاعراض بالقلوب عن كلام الله وحديث من جعله الله رحمة للعالمين فهو جدير بان يسمى عصر القصة والشعر لا القرآن والحديث نعم نشكر الاستاذ على التحذير عما خافه وتوهم ان بعض الناس وقع فيه فاعتنى به اعتناء خاصا فترغيبه مفيد لمن سيأتون او سوف يأتون ولا ضير في التقديم ان اراد الله ـ الصلاح وقدر من له في خلقه كل يوم شؤن فحفظ آثار اولئك من حكايات واشعار غير معدود من اللغو عند اولى الحصافة والاعتبار اما ان نقول انه يتوقف عليه فهم القرآن ونمثل بالايتين فلا نوافق عليه حتى على تقدير تنزيلها في صحة تصويرها منزلة الاحاديث الصحيحة والاستاذ حفظه الله من ادرى الناس بهذا وبيانه ان ثمرة النهي عن ان يكونوا مثل التي نقضت غزلها لا يحتاجها الجهل بحالتها المدنية وان قرع المكذبين الناهضين في اذاية الرسول والمعاداة

لانصاره لا يوهنه او يهونه جهل كيفية الاحراق وشخصية المحرقين كما انه لا يعسر المعنى ولا يفمه ويعميه فمن الغرابة ان يجعله الاستاذ مقوما للفهم مع انه لا يعد علم العقائد والفقه من مواد التفسير خلافا لعبد الحكيم والسيوطي والالوسي فكيف يتوقف الفهم حينئذ عنده عن معرفة تلك الاخبار التي لا تخلو صورها من الكذب المقصود وغيره وان كان لبعضها اصل صحيح بنص القرآن ولولاه لجوزنا كذبها لكونها اخبار مشاهدها في امة امية

« واما القراءات فلا نحتاج اليها الا في حين الاستدلال بالقراءة على تفسير غيرها وانما يكون في معنى الترجيح لاحد المعاني القائمة من الاية او لاستظهار على المعنى فذكر القراءة كذكر الشاهد من كلام العرب لانها ان كانت مشهورة فلا جرم انها تكون حجة لغوية وان كانت شاذة فحجتها لامن حيث الرواية لانها لا تكون صحيحة الرواية ولكن من حيث ان قارئها ما قرابها الا استناد الاستعمال عربي صحيح اذ لا يكون القاري معتدا به الا اذا عرفت سلامة عربيته كما احتجوا على ان اصل الحمد لله انه منصوب على المفعول المطلق بقراءة هارون العتكي الحمد لله بالنصب كما في الكشاف وبذلك يظهر ان القراءة لا تعد تفسيرا من حيث هي طريق في اداء الفاظ القرآن بل من حيث انها شاهد لغوي فرجعت لعلم اللغة »

يوهم كلام الاستاذ انه يوجد من يقول ان القراءة تعد تفسيرا من حيث هي طريق في اداء الفاظ القرآن وانه راد لهذا القول وغير مقر له ويوجد من يعدها تفسير اله من حيث انها شاهد لغوي وانه موافق عليه ومصوب له والذي ادى اليه اجتهاد هذا العبد الضعيف ان القراءة لم تعد تفسيرا ولا تعد ولن تعد بجميع وجوهها وكل حيثياتها لكنها محتاج اليها ومرغوب فيها ومستعان بها عليه واداة له وبيان الجنيبات وتحقيقها لا يهم من توجه قلبه للتبصر في معاني كلام الله ولو كان من انصار الفكر القديم .

الصفحة الواحدة والعشرون

« واما اصول الفقه فلم يكونوا يعدونه من مادة التفسير ولكنهم يذكرون احكام الاوامر والنواهي والعموم وهي من اصول الفقه فتحصل ان بعضه يكون مادة للتفسير وذلك من جهتين احداهما ان علم الاصول قد اودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب وفهم موارد اللغة اهمل التنبيه عليها علماء العربية مثل مسائل الفحوى ومفهوم المخالفة وقد عد الغز[illegible]

من جملة العلوم التي تتعلق بالقرآن باحكامه فلا جرم ان يكون مادة للتفسير الجهة الثانية ان علم الاصول يضبط قواعد الاستنباط ويفصح عنها فهو آلة للمفسر في استنباط المعاني الشرعية من آياتها »

من عوائد اهل الصدر الاول ومن يليه من مدوني العلوم الاسلامية ان لا يذكروا القواعد الا مداولة لجزئياتها ومستفادة منها فياتي من بعدهم ويحوطون تلك الجزئيات بالقواعد المدلول عليها بكلام السابقين ويضبطون ما اجملوه فعدم عدهم له من مواد التفسير ان ثبت من جميعهم لا يدل على انه غم عليهم امره وسكوت علماء العربية الاولى اطلعنا على تآليفهم عن تلك المسائل ليس اهمالا لها وانما كان تركا مقصودا واجتنابا مرادا حتى لا يخلطوا على الناس ويلبسوا ما ارادوه من بيان معاني مفردات وصيغ جموع او احكام لفظية تتعلق باواخر الكلمات او اوساطها او معان تركيبية بلاغية بالمعاني التركيبية التي تترتب عليها الاحكام الشرعية من حلال وحرام ووجوه فصل بين الناس اذ تخصص لها فريق مستقل ملقب بعلماء الاصول وهو مجرد اصطلاح ولو اصطلحوا على ادخال هذا الفريق في علماء العربية واطلقوا عليه عنوانهم لما كان في الامر خرج وعايه فعلماء العربية قاموا بواجبهم المفروض فلا يشينهم الوصف باهمال ما فيه خير كثير والمتقدمون عدوه من مواد التفسير تلويحا ان لم يكن تصريحا وفقنا الله لفهم اقوالهم وكشف اجمالهم

« وقد عد عبد الحكيم والالوسي علم الكلام في جملة ما يتوقف عليه علم التفسير قال عبد الحكيم لتوقف علم التفسير على ثبات كونه تعالى متكلما وذلك يحتاج الى علم الكلام وقال الالوسي لتوقف فهم ما يجوز على الله ويستحيل على الكلام يعني من آيات التشابه في الصفات ولعل هذا التوجيه اقرب من توجيه عبد الحكيم وكلاهما اشتباه لان كون القرآن كلام الله قد تقرر عند سلف الامة قبل علم الكلام ولا اثر له في التفسير واما معرفة ما يجوز وما يستحيل فكذلك ولا يحتاج لعلم الكلام الا في التوسيع في اقامة الادلة على استحالة بعض المعاني وقد ابنت لكم ان ما يحتاج اليه المتوسع لا يصير مادة للتفسير »

يقدم في الهيجاء اقدام من يوقن بالفتك ولا يستريب

اقتضى النص الحكم على الرجلين عبد الحكيم والالوسي بالوقوع في الخطا لكن خطا الثاني دون خطا الاول فحشا وهو فوز على الاول لا باس به وبعض الشراهون من بعض قد يعذر المؤلف في عد كلام عبد الحكيم اشتباها لما ذكره ولان فهم القرآن وتفسيره متيسر ان لا يتوقفان على اعتقاد انه كلام الله ولان

المفسرين الذين علمنا تفاسيرهم وطالعنا بعضها وكلها لم يبنوها على ذكر اثبات صفة الكلام واكتفوا بما في انفسهم وانفس متناوليها من العقيدة ولكن الالوسى لا يصح الحكم عليه بما حكم به على عبد الحكيم لانه علل الاحتياج اليه بما قبوله ضرورى فقد يضل الخالي منه عندما ياخذ في تفسير المتشابهات فيضل غيره فقد حكا المفسر ابن جزى عن مفسر لم يسمه انه اعاد ضمائر قوله تعالى في سورة « والنجم » « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين او ادنى » اعادها على الله تعالى وتنزه عن صفات المخلوقين وهنا أسأل الاستاذ متواضعا منحنيا هل كان هذا المفسر المحكي قوله عن ابن جزي محتاجا في التفسير الى علم العقائد او غنيا عنه ثم نستوهب حلمه فنقول ان عبد الحكيم المشهور بالايجاز الملحق بالالغاز لعله اراد بقوله لتوقف علم التفسير على اثبات كونه تعالى متكلما جميع الصفات العلية فيتلاقى حينئذ بالالوسي في صعيد واحد ثم ما المضرة في تسليم قولهما والاغضاء عنه على فرض انفرادهما به وصحة بحثه فما في هاته المماكسة الا بعث الجرأة على التفسير في اصحاب الفكر الجديد قبل الاستعداد وترشيحهم اليه عند اخذهم نصيبا وافرا من اللغة العربية وحفظهم لمزاعم الجاهلية وحكاياتها لانها مما يتوقف التفسير عليها ولا يتوقف على علم العقائد وعلم الفقه في رأي الاستاذ اما رأينا المأمول انه صواب فهو الثناء على العلامتين رحمهما الله فيما رايا

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكي　　　بكاها فقلت الفضل للمتقدم

« ولم نعد الفقه من مادة علم التفسير كما فعل السيوطى لعدم توقف فهم القرآن على مسائل الفقه فان علم الفقه متاخر عن التفسير وفرع عنه وانما يحتاج المفسر الى مسائل الفقه عند قصد التوسع في تفسيره للتوسع في طرق الاستنباط وتفصيل المعاني تشريعا وآدابا وعلوما ولذلك لا يكاد يحصر ما يحتاجه المتبحر في ذلك من العلوم ويوشك ان يكون المفسر المتوسع محتاجا الى الالمام بكل العلوم وهذا المقام هو الذي اشار له البيضاوي بقوله « لا يليق لتعاطيه والتصدى للتكلم فيه الا من برع في العلوم الدينية كلها اصولها وفروعها وفي الصناعات العربية والفنون الادبية بانواعها »

اريد من الاستاذ سامحه الله وادام الاستفادة من فيضه ان يجيبني على سؤالي الخجل وياتيني رشدي ما قوله في التآليف الحديثة المختصة بالدلالة على احكام شرعية كثيرة موزعة بين معاملات وعبادات ولم تكن سببا لنزول ءايات هل صدرت من النبيء صلى الله عليه وسلم بعد تمام نزول القرآن او قبله اي قبل ان تم نزوله فان قال بالاولى اى بعد تمام النزول فهو غير مسلم ممن له ادنى صلة

بالعلم لانها شرعت ايضا احكام كثيرة في زمن الرسول ولم ينزل فيها قرآن اصلا وشرعت ايضا احكام كثيرة عرفت قبل نزول قرآنها ولذلك امثلة كثيرة ذكرها في الاتقان بعضها متفق عليه وبعضها مختلف فيه من ذلك الوضوء والصلاة والزكاة فانها عرفت من الفعل والقول النبويين قبل نزولها في القرآن فدعوى ان الفقه لم يعرف الا من القرآن مرغوب عنها وان قال بالثاني اي ان بعض الاحكام عرفت قبل نزول القرآن نزل فيها او لم ينزل في شانها شيء منه فلماذا لا نعده مادة التفسير ونعطيه رتبة الاخبار العربية من العون عليه والابانة فيه وان من المعلوم ان بعض العلماء افرد الاحاديث القضائية بالتاليف كابن دقيق العيد وابن شعبان وغيرهما ممن نجهله وتعلمه مكتبة الاستاذ العامرة ثم نقول للاستاذ ان كلام البيضاوي صريح في ان تعاطى التفسير لا يليق الا بمن نال درجة عليا في العلوم التي ذكرها ولو اراد ما فهمه الاستاذ وحمل كلامه عليه لقال لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه اذا اراد اخراج تفسير عظيم جامع الا من برع لكنه لم يقل فوجب حمل كلامه على ظاهره ولا داعي للتاويل عند صحة الظاهر فهو يريد من المفسر ان يكون بارعا في العلوم المذكورة ولو كان ملما متوفزا وقد حمله على هذا الاشتراط هول مقام التفسير والخشية على كلام الله من ان يتصدى من ليس له فيها مقام كبير بدليل الاوصاف التي الحقها بتلك العلوم وهي الدينية والعربية والادبية ولو اراد المتوسع فقط لزاد الطبيعية والفلكية والسحرية والتاريخية على الاقل لان القرآن ذكر النبات والحيوان والكواكب وهاروت وماروت والاقوام الهالكين بتكذيب الرسل من العرب وغيرهم هذا هو الظاهر المنساق مع الطبع ولا يعدم المتكلف طريق الاعتساف ومجاوزة الانصاف جوابا وخاتمة هذا التعليق قولنا ان في القرآن مشكلات ومتشابهات منها ما يتعلق بالعقائد ومنها ما يتعلق بالاحكام فاذا كان المفسر خاليا من من عاميهما وعرضت له تلك اديات خبط عشواء

الصفحة الرابعة والعشرون

« ثانيها ان لا يتدبر القرآن حق تدبره فيفسره بما يخطر له من بادىء الرأى دون احاطة بجوانب الآية ومواد التفسير مقتصرا على بعض الادلة دون بعض كان يعتمد على ما يبدو من وجه في العربية فقط كمن يفسر قوله تعالى « ما اصابك من حسنة فمن الله » الآية على ظاهر معناها يقول ان الخير من الله والشر من فعل الانسان بقطع النظر على الادلة الشرعية التي تقتضي ان لا يقع الا ما اراد الله غافلا عما سبق من قوله تعالى « قل كل من عند الله او بما يبدو من ظاهر اللغة

دون استعمال العرب كمن يقول في قوله تعالى « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فيفسر مبصرة بانها ذات بصر لم تكن عمياء فهذا من الراى المذموم لفساده » يجب ان يقال عند ما يسمع كلام هذا المفسر انه القى نفسه في اليم قبل ان يدرب بها على السباحة فصار العطب اقرب اليه من السلامة فلو كان ذا نصيب من علم الكلام الذى ابى الاستاذ ان يجعله من مواد التفسير لما وقع في الغلط الذى يخشى منه على عقيدته وقد فهمت من كلام الاستاذ هنا رجوعه عما صرح به في صفحة عشرين من تغليط الالوسى في عد علم العقائد من مواد التفسير ولا ضير في النزول عن الخطا بعد ركوبه والرجوع الى الحق بعد ما تبين فذلك شان الابرار هذا وانى عوضت « ما » في آية « قل كل من عند الله » بـ« من » الجارة لانى وجدتها صحبتها في القراءات العشر او لا ولان المعنى يحتم احلال « من » محل « ما » ثانيا وبعد فقد امعنت النظر في قول مفسر « مبصرة » في آية ناقة صالح عليه وعليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام فوجدت خطاه غير الجهل باستعمال العرب لانهم يستعملون لفظ « مبصرة في كلا المعنيين المعنى الذى اراده هذا المفسر مخطئا والمعنى المجازي الذى اهمله وانما اوقعه في الخطا خمود الفطنة وكثرة استعمال الكلمة في المعنى الذى حملها عليه فظن ان الحمل على الاكثر اولى اينما وقع ترجيحا للحقيقة على المجاز وغفلة عن استعمال القرآن في خصوص هذا الموضع فلو قيل انما اوقعه في الخطا ضعف فطنته ـ وجهله بالمراد ، لسلمت العبارة من الانتقاد ، لانها لا تصح الا اذا كانت العرب لا تستعمل تلك اللفظة اصلا في المعنى الذى اراده المفسر المفروض ، ذو القول المرفوض هذا وليعلم من ارادوا تنوير ـ الفكر الجديد عموما بان ذوقه يعد الخطا في القاعدة كالخطا في امثلتها فليحذروا غضبه والتربص المستعجلون وليحرر المتاملون

الصفحة الخامسة والعشرون

« ثالثها ان يكون له ميل الى نزعة اومذهب او نحلة فيتاول القرآن على التاول ويصرفه عن المراد ويرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف فيجر شهادة القرآن لتقرير رأيه ويمنعه عن فهم القرآن حق فهمه ما قيد عقله من التعصب عن ان يجاوزه فلا يمكنه ان يخطر ببالـه غير مذهبه حتى ان لمع له بارق حق وبدا له معنى يباين مذهبه حمل عليه شيطان التعصب حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقدك كمن يعتقد من الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فان خطر له معنى قوله تعلى «القدوس» انه المنزه عن كل صفات المحدثات حجبه تقليده عن ان يتقرر ذلك في نفسه ولو تقرر لتوصل فهمه فيه الى كشف معني ثان وثالث ولكنه يسارع الى دفع ذلك عن

خاطره لمناقضته مذهبه وجود الطبع على الظاهر مانع من التوصل للغور ومن امثلة ذلك من فسر من الشيعة « ان علينا للهدى » ان ذلك اسم على مضاف لضمير الجلالة فهذا يمشي مع ما يصلح له الرسم دون النطق وكذلك تفسير المعتزلة قوله « الى ربها ناظره » بمعنى انها تنتظر نعمة ربها على ان « الى » واحد الآلاء مع ما في ذلك من الخروج عن الظاهر وعن المأثور وعن المقصود من الاية »

وضع المعتزلة المفسرين للاية بما ذكر الاستاذ موضع الشيعة المحرفين لها بما لا يوافق عليه طبع ولا يسوغه شرع ولا يساعده نطق واحلالهم محلهم في البعد عن الرشد لا يليق بمن يهوى التحرير ، ولا يجارف في التعبير . اذ تفسير المعتزلة مبني على المبالغة في التنزيه وليس فيه عدول واضح عن الظاهر والا لقلنا تفسير آية « الرحمان على العرش استوى » ان تفسير « استوى » فيها باستولى على مذهب بعض اهل السنة وبعض المعتزلة خروج عن الظاهر ايضا لكن عدول أهل السنة عن الظاهر في آية الرؤيا لصحة حديثها عندهم وتواتره بينهم وصحة اندراجه في الاحاديث التي تفيد بيان القرآن الدافع لصدورها من النبيء صلى الله عليه وسلم قوله تعالى «وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون» وتاويل المعتزلة للاية لا يختلف معناه بينهم سواء قدروا « الى » اسما او قدروها حرف جر وقد قالوا بكليهما ولم يخالفوا بين معنييهما بالنسبة لحاصل معنى الآية عندهم ولا يقربهم تفسيرهم لها الى الكفر بل هم من الكفر فروا كما قال امام دار الهجرة في شانهم اما الشيعة المفسرون « ان علينا للهدى » بما سلف فان تفسيرهم يكاد يغمسهم في الكفر اذ يصح ان يقال فيه انه تلاعب بالقرآن ، واستخفاف بمراد الرحمان .

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضر كوضع السيف في موضع الندى

الصفحة الثامنة والعشرون من المقدمات

« الثاني ما كان من نحو التفاؤل فقد يكون للكلمة معنى يسبق من صورتها الى السمع هو غير معناها المراد وذلك من باب انصراف ذهن السامع الى ما هو المهم عنده والذي يجول في خاطره وهذا كمن قال في قوله تعالى « من ذا الذي يشفع من ذل ذي إشارة النفس يصير من المقربين الشفعاء »

هذا القائل شبيه بمحرف آية « ان علينا للهدى » فالاولى طي مثل هذه السخافات او تعقبها بالانكار كما فعل ابن الجوزى في كتابه المسمى « نقد العلم

والعلماء او تلبيس ابليس » لانه حائم على دائرة ـ الباطنية او واقع في ساحتها اما بسطه والتوسع فيه وذكر ما سمى امثاله به الشيخ محيى الدين قدس سره واستحسانه فقد يفهم منه انه لا باس به والصوفية لهم شطحات لاينبغى لامثالنا ان يشاركوهم فيها ولا ان ينكروها عليهم فقد دخلوا مواضع لم ندخلها وعرفوا اسبابا لم نعرفها وفي قصة كليم الله مع الخضر عليهما وعلى نبينا الصلاة والتسليم الخبر اليقين وقد ذكر عن صالح صوفى قوى البدن ان شاهده شابان يولم بائسا مريضا طاعنا في السن بالضرب والاهانة فاراد احدهما ان ينقذه منه ويفعل معه مثل فعله مع ذلك البائس الفقير فنهاه رفيقه ثم رده عنه باللين والاسترحام فقبل الصوفى شفاعته وقال له لو علمت يا بني لا ستقللت مني ما رايت ثم انصرف ضاحكا قائلا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت انك جاهل فعذرتكا

ثم تبين بعد للشابين اللذين نصراه ان المعتدى عليه بفتح الدال من اسافل المجرمين السفاكين المنفلتين من القضاء الشرعى الدنيوى فاقوال الصوفية الحقيقيون واعمالهم فوق اذواقنا وبعيدة عنها بعد طيب الريق وعذوبته وبرودته عن افواه البخر المحمومين واين من اشربت قلوبهم حب رضاء الله ممن فتنوا بحب المال والجاه والرفاهية وما احسن في المقام قول استادنا العلامة شيخ الاسلام محمد بن يوسف نعمه الله ان للشيخ محيى الدين بن عربى جواهر لا تتمكن منها الا الجسوم الشفافه بارواحها المشرقة

الصفحة الواحدة والثلاثون

« ان القرآن الكريم انزله الله تعالى كتابا لصلاح امر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى « وانزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (١) المراد من كل شيء انما هو كليات الاشياء واصولها فيما يرجع الى ما جاء القرآن لاجله غير ان ظاهر كلام الشاطبى وغيره ان ذلك فيما يرجع الى الاحكام وانا لا ارى تخصيص ذلك بذلك

كلام الاستاذ صريح في انه داخل في عموم المفسرين المتفقين على ان المعنى المراد هو كليات الاشياء واصولها فيما يرفع الى ما جاء القرآن لاجله فهو غير راء في الآية رأيا تجديدا فالاولى الآن حمل كلام الشاطبى ومن معه على غير ظاهره كي لا يشذا عن عموم المفسرين ويخرجا عن اجماعهم المنعقد بانضمامه اليهم ومن الواجب ان لا يحملهما مقتضى ظاهر كلامهما لانهما لو قيل لهما ايدخل في عموم كل شيء من مشمول الاية ما يرجع الى الاحكام فقط ام يدخل فيه ايضا ما يرجع الي تصحيح العقائد واصلاح النفوس وبقية الاقسام الثمانية التي نقلها لقالا هذا ما

اردناه لا ذاك وتبرآ من ظاهر عبارتهما واذا كنا بهما الافصاح . فما على الدال بلسان حاله من جناح هذا واني لاعجب من الاستاذ سامحه الله حيث اعد للمعاملة صاعين احدهما سمح والآخر شحيح فكال للبيضاوى بالسمح واول كلامه ليجنح به الى موافقته في عد الفقه والعقائد غير محتاج اليهما المفسر الذى لم يرد التوسع خلافا لعبد الحكيم والسيوطى والالوسى وكال لناصر السنة وخصم البدعة ومن معه بالمكيال الناقص فشح بتاويل كلامهما ولم يعدل به عن الظاهر فابقاهما مخالفين له ولبقية المفسرين والاولى ان لا نعاتبه على ما رآه فقد جرت سنة الكون بتفاوت حظوظ الناس في دنياهم واخراهم

سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامه
اعمى واعشى ثم ذوا بصر وزرقاء اليمامه

ولا يقتضى عجبنا من صنيعه انكارنا لتوقيعه

الصفحة الثانية والثلاثون

« ولتكون الامة المتلقية للتشريع والناشرة له امة قد سلمت من افن الراي عند المجادلة ولم تقعد بها عن النهوض اغلال التكالب على الرفاهية ولا عن تلقى الكمال الحقيقي اذ يسبب لها خلطه بما يجر الى اضمحلاله »

ما احسن كلام الاستاذ هنا واجمله فان التكالب على الرفاهية سبب كل بلية ولكن قعودها بالمتكالبين عن النهوض فيه نظر قوي فانها من اسباب النهوض المادي قطعا ولولا حبها ما جدت الامم في اعمالها هذا الجد الذي سد عليها سبل التفكير في امر المعاد ، وقطعها عن الراحة والظفر ايضا بالمراد ، حتى شملها من من ارادهم قوله تعالى « يعلمون ظاهرا من الحياة وهم عن الآخرة هم غفلون » نعم يسلم كلام الاستاذ فيما يتعلق بالنهوض النفسي الاخلاقي فان التكالب في حبها يقعد بهم عنه اذا لولاه ما اكلت الرشا اكلا لما ، وما حب المال حبا جما ، ولا خان المؤتمن واخلف الواعد ، ولا رفع المنحط ونزل الصاعد ، ولا سفكت الدماء بغير حق ، ولا عومل المطالب بحقه معاملة غير المحق ، ولاجل ذلك فان التكالب عليها لا يتحقق انه عائق عن النهوض الا في الاخلاق ولنعد الى ما يتعلق بقوله آخر الصفحة « اذ يسبب لها خلطه بما يجر الى اضمحلاله » فهو غامض جدا وقد كلفني احد الاصحاب بيانا له فلم اقدر حيث اتى به مرسوما في ورقة فطلبت منه ان ياتيني

بالكتاب لعلي اتوصل الى الفهم بالنظر فيما قبل وفيما بعد، فوقعت على التعليق بآخر الصفحة وقوع الضمان وقلت له دونك التعليق فاقراه تهتد فاحتج بانه رآه قبل وهو غير محتاج لان ادله عليه وانما يريد بيانه من التركيب الموضح بالتعليق الشبيه بترجمة الاعجمية الى العربية فقلت اليس كافيا في المراد فقال دعني من محاورتك الحالية وبين معاد الضميرين والاعراب فقلت اما الاعراب فنعم فقال ان الجنوح الى السهل طبع فيكم ايها الشيوخ فقلت ذاك جهدي والسلام

الصفحة الثالثة والثلاثون

« ولو لاخشية التطويل لبسطنا كيف كانت احوال الامم المعاصرة للعرب في ذلك الوقت »

قد بسط المؤلفون من المؤرخين وغيرهم من العلماء ما كانت عليه الامم قبل البعثة عربا وعجما وانهم كانوا كاسنان الحمار لكن الفساد انواع والمساوي اوزاع والموازنة عسيرة ومن اشنعها وأد البنات وانكار النبوات وقتل الجماعة بالفرد ومقابلة الارشاد بالاذاية والصد وعبادة الجماد . والنذر له بذبح الاكباد . وفي قوله تعلى « يا ايها النبيء اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببرهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله غفور رحيم » بيان لبعض مخازي ذلك الوقت في احد الشقين واني اشعر ان وقت الذاكرة انه ذكر العلامة محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله في رسالة التوحيد ما تقشعر من بعضه الجلود وقال بعده ان امم ذلك العصر لم تكن احسن حالا من العرب ولم يوهم التفاضل او يقل غيرما يعتقدبو في بطون الاسفار ما يملا النفوس يقينا بتعميم الرحمة في الرسالة المحمدية عند زمن تجرد اهله في احوالهم الفردية والاجتماعية من النظام. وتسارعوا الى العيث وقطع الارحام. فيالها من رسالة عامة كانت رحمة للعالمين اشرق نورها على العرب اذ كانوا احوج الناس اليها ثم انتقل لغيرهم فصيرهم اخوانا متحدين في نصرها ونشرها عاملين بقوله تعالى « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون . بالمعرف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون »

الصفحة الخامسة والثلاثون

« هذا ما بلغ اليه استقرائي وللغزالي في احياء علوم الدين بعض من ذلك »

انني ممن يعتقدون جواز توارد الخواطر كجواز وقوع الحافر على الحافر ، مثلما قال الحريري وممن يشنعون على من يسمع كلام شاعر متأخر فيظن ان معاني شعره او بعض الفاظها مسروق من متقدم واضعا اليقين موضع الشك وهذا بمجرد الخطور على البال ، لا عن تحقيق واستدلال ، فيكون حكمه مبنيا على حب نسبة القصور للمتأخر وهذا منشؤه الحسد وحب الطعن ، وكذلك التأليف قد ينالنه ما ينال الشعر ولذلك صادمت بعض رفقائي في اعتراضه على الاستاذ بان ما ذكره مستمد ومنحوت من كتاب جواهر القرآن لحجة الاسلام الغزالي فانه في هذا السبيل غاية ، وفي الحسن نهاية ، وان كتابه لينبوع تغترف منه الدلاء ، والله يؤيد من عباده من يشاء ، فلو قال الاستاذ عوض ما قال وللغزالي في جواهر القرآن فيض من ذلك لكان افيد وادل ، ولا نوف المولعين بالاتهام اركس واذل ، وقد اجبت عن الاستاذ بان كلامه لا يقتضي انه استقراه من القرآن مباشرة فيجوز ان يكون بواسطة وبدونها واذا كان الامر هكذا فالاعتراض غير وجيه ، ايها الصاحب الفقيه ،

« فطرائق المفسرين للقرآن ثلاث اما الاقتصار على الظاهر من المعنى الاصلي للتركيب مع بيانه وايضاحه وهذا هو الاصل واما استنباط معاني من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ والمقام ولا يجا فيها الاستعمال ولا مقصد القران وتلك هي مستتبعات التراكيب وهي من خصائص اللغة العربية المبحوث عنها في علم البلاغة ككون التاكيد يدل على انكار المخاطب وتردده وكفحوى الخطاب ودلالة الاشارة واحتمال المجاز مع الحقيقة »

اثار رفيقي القديم الذي كنت معه عند سرد هذا الموضوع اعتراضا على عدم ذكر علم الأصول بعد علم البلاغة ليفيد المؤلف انه مما يبحث فيه عن الفحوى والمعطوفين بعدها في علم الاصول لا في علم البلاغة فان ذلك تابع لعلم الاصول الا لعلمها وقد اجبت بانه اراد ذكره وغفل او اختصر اذ لا يخفى على المخاطبين ان دلالة الفحوى والاشارة مما يبحث عنها فيه وان ذكر قول ابن مالك ـ وحذف ما يعلم جائز ـ البيت يحطم اعتراضك فاحتد قائلا سبحان الله يشيب المرء على ما شب عليه انت مولع بالتكلف في الاجوبة وابطال الاعتراضات من حين حضورنا بدرس شيخنا العلامة عثمان بن الخوجة رحمه الله وقد مضى على دراستنا نحو

خمسي قرن الا ان الفرق بين حالتيك ان اجوبتك في عهد الشباب لم تخل من حرارة اما الآن فهي ثلجية فما اجدرها بان تترصد بالقائها زمن الصيف فقلت له لا تنس يا اخي ان الحر والقر لهما علاقة بالسن فسكنت حدته وقال انك ذكرتني ما انسانيه ما وقف بنا على روضة القبر من شيب وهرم بعد ما تعلمناه عند اخضرار العود ورواء الشباب فسبحان من قال « ومن نعمره ننكسه في الخلق افلا تعقلون » فقلت اتذكر ما ابداه شيخ شيوخنا العلامة سالم

ابو حاجب رضي الله عنه فقال ان في الآية معطوفا محذوفا مع عاطفه اى « والخلق » بضم الخاء واللام وانهم يسمون هذا اكتفاء ومن امثلته قوله تعالى « سرابيل تقيكم الحر » اى والبرد فقال نعم زادك الله تيقظا واني لا زلت اعتقد صحة اعتراضي ويمنه ايضا اذ لو لا لفاتتنا هذه الذكرى وهذا التذكير فاحمد الله على اثارته فقلت نعم فيه يمن وفيه شؤم لانه جرنا الى الخوض في الحذف وفي ذلك اشعار بقرب حذفنا من دار الغرور فقال هذا هو اليمن كله فمرحبا بما يشعر بقربنا من لقاء الله فقلت حججتني جعل الله يومي قبل يومك او قريبا منه ثم كان الوداع وفي الاخرى يطول ان شاء الله الاجتماع

وحبيب الفته فافترقنا   وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
وافترقنا حولا ولما التقينا   كان تسليمه علي وداعا

الصفحة السادسة والثلاثون

« وان بعض مسائل العلوم قد تكون اشد تعلقا بتفسير آى القرآن كما نفرض مسالة كلامية لتقرير دليل قرآني مثل برهان التمانع لتقرير معنى قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » وكتقرير مسالة المتشابه لتحقيق معنى نحو قوله تعالى والسماء بنيناها بايد وهذا كونه من غايات التفسير واضح وكذا قوله تعالى « او لم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » فان القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهدة فلو زاد المفسر ففصل تلك الحالة وبين اسرارها وعللها بما هو مبين في علم الهياة كان قد زاد المقصد خدمة »

يؤخذ من كلام الاستاذ انه تراجع عما اسلفه بصفحة عشرين من الانكار على عبد الحكيم والالوسي رحمهما الله في عدهما علم العقائد من مواد التفسير واذا كان الظن صادقا وهو الاقرب بل المتحقق لانه سبق هذا ما يفيد رجوعه فصار هذا الرجوع مستفادا من موضعين فقد سقط القول بان الاستاذ شانه المضي فيما ارتآه والولوع بقول الحماسي

اذا هم القى بين عينيه عزمه   واعرض عن ذكر العواقب جانبا

وبانه يعد الرجوع منافيا لعلو الهمة ولو بعد تبين الحق فان قصد بهذا الرجوع عما سبق منه بصفحة عشرين فهو فضيلة وان لم يقصده نقد وقع في التناقض ولا يفيده في دفعه ان يقول ان ما ذكرته مما يوهم التناقض في الموضعين انما هو خاص بمن يريد التوسع في التفسير لا لمن يريد البيان المضيق او المتوسط لان ما ذكره عقب الآيتين مستمد من علم العقائد ومحتاج اليه المفسر سواء اراد الاجمال او التفصيل مطولا او موجزا والحقيقة بنت البحث والتامل والانصاف المشرق في كل افق وما على الراجعين اليه بعد التوبة والتكفير عن الحوبة من بخس ولا رهق

الصفحة السابعة والثلاثون

واما ابوا اسحاق الشاطبي فقال في الفصل الثالث من المسألة الرابعة « لا يصح في مسلك الفهم والافهام الا ما يكون عاما لجميع العرب فلا يتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه وقال في المسألة الرابعة من النوع الثاني - ما تقرر من امية الشريعة وانها جارية على مذاهب اهلها وهم العرب تنبني عليه قواعد منها ان كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فاضافوا اليه كل علم يذكر للمتقدمين او المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف واشباهها وهذا اذا عرضناه على ما تقدم لم يصح فان السلف الصالح كانوا اعلم بالقرآن وبعلومه وما اودع فيه ولم يبلغنا ان احدا منهم تكلم في شيء من هذا سوى ما ثبت فيه من احكام التكاليف واحكام الاخرة نعم تضمن علوما من جنس علوم العرب وما هو على معهودها مما يتعجب منه اولو الالباب ولا تبلغه ادراكات العقول الراجحة الخ »

ابو اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠ علامة زمانه عرف بين العلماء بغزارة العلم وقوة الحجة وعلو الهمة والتقوى والزهد وصحة البصيرة تخرج عنه علماء افذاذ منهم ابن عاصم صاحب التحفة القاضي بالاندلس واخوه وغيرهما من المشاهير واخذ على اعاظم علماء وقته مثل سعيد بن لب وفاقهم وله تآليف اشهرها « الموافقات » و« الاعتصام » وهما كتابان من ذخائر الاسلام ومفاخره قال فيهما العلامة المنعم الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار الدينية العلمية المشهورة عند اكابر العلماء قال « هما كتابان صالحان لبعث الحياة في الامة الاسلامية ورجعها الى اخلاق السلف يفوقان العدد الكثير من مجلداتها وقد جرت بينه وبين علماء عصره من الاندلس وغيرها مناظرات في مسائل علمية حالفه فيها التفوق ومن المناظرين له الامام ابن عرفة وليس القصد

استيفاء الترجمة فهي في كتبها بل الفات النظر الى الكتابين ثم ذكر علامة تونسي في شأنهما وهو اخونا الروحي الاستاذ محمد بن سليمان المتوفى سنة ١٢٧٠ فقد قال لي ولغيري مرات «مهما طالعت سفرا من الغزالي او ابن العربي او ابن رشد او الشاطبي الاطويته وفي نفسي جموح عن تسليم بعض الآراء وقد اسلم بعد رسوبها وقد استمر مخالفا الا مع الشاطبي فاني استسلم بعد النظر فقلت انت في نظرك لرأيه كنظر ابي نواس لوجه موصوفه حين قال

يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظار

فقال نعم احسنت جدا هذا وابن سليمان علامة نظرا صحيح النقد قعد به ميله الى العزلة وانفته وزهده عن ان يشار اليه بالاصابع وهو ايضا اديب ماهر موفق متفوق رحمه الله وجمعنا به في دار السلام

الصفحة الثمانية والثلاثون

« وهذا مبني على ما اسسه من كون القرآن لما كان خطابا للاميين وهم العرب فانما يعتمد في مسلك فهمه وافهامه على مقدرتهم وطاقتهم وان الشريعة امية وهو اساس واه لوجوه احدها ان مابناه عليه يقتضي ان القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال الى حال وهذا باطل لما قدمناه قال تعالى « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا الثاني ان مقاصد القرآن راجعة لعموم الدعوة وهو معجزة باقية فلا بد ان يكون فيه ما يصلح لان تتناوله افهام من ياتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الامة الثالث ان السلف قالوا ان القرآن لا تنقضي عجائبه يعنون معانيه ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه بانحصار انواع معانيه الرابع ان من تمام اعجازه ان يتضمن من المعاني مع ايجاز لفظه ما لم تف به الاسفار المتكاثرة الخامس ان مقدار افهام المخاطبين به ابتداء لا يقتضي الا ان يكون المعنى الاصلي مفهوما لديهم فاما ما زاد على المعاني الاساسية فقد يتهيأ لفهمه اقوام وتحجب عنه اقوام ورب حامل فقه الى من هو افقه منه . السادس ان عدم تكلم السلف عليه ان كان فيما ليس راجعا لمقاصده فنحن نساعد عليه وان كان فيما يرجع لمقاصده فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات بل قد بينوا وفصلوا وفرعوا فكان ذلك في علوم عنوا بها ولا يمنع ذلك ان نقفي على آثارهم في علوم اخرى راجعة لخدمة المقاصد القرءانية او لبيان سعة العلوم الاسلامية » الحمد لله على انتهاء اوجه الرد التي كدنا ان لا نخالها تنتهي الا عند انتهاء الكتاب ولولا خوف الغفلة لا حلنا المطالعين فى ردها على مراجعة كلام الشاطبى والتامل منه عند التوقف

في نقضها فانهما كفيلان برد هذه الاعتراضات لكن لابد من البيان والسير على قدر طاقة الضعفاء وان كان الاقوياء والمتوسطون غير محتاجين اليه والله المستعان
الوجه الاول من الاوجه الستة يرد بان كلام الشاطبي لا يقتضي بحال ان بقاء العرب على ما كانوا فيه من الضلال مراد للقرآن وان القرءان يابي انتقالهم عن تلك الحالة ولو كان ما نسبه الاستاذ لعبارة الشاطبي صحيحا لحكم علماء عصره عليه بفسق الاعتقاد ان لم يحكموا بكفره لكنهم لم يفعلوا لان صريح عبارته قريب من تفسير قوله تعالى « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ومصداق قول صاحب البردة

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

ولم ادروجه الرد بقوله تعالى « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا » الا اذا قدرنا توهم الاستاذان الشاطبي قال « ان القران يابى خروج العرب عن ضلالتهم وانتقالهم عما كانوا عليه قبل نزوله » لكن فتشنا عن هذا فلم نجد له اثرا في كلام الشاطبى وغاية ما يرمى الله كلامه انه يسر فهمه للاميين ولم يقصره على العلماء والحكماء والمكتشفين والمخترعين ولينظر المريب الى قوله تعالى في سورة الانعام « قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الاوسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وان هذا سراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون » ومثل هذه الآيات غالب القرآن كسورة العصر مثلا فالهداية بها لمن وفقه الله وفهم المراد منها شامل ولو كان غالب القران من نوع المتشابه لكبا في فهمه الاميون ولم يحصل من تاثيره في اصلاح النفوس واشراقها ما حصل فهذا ايضا مما عناه الشاطبى بقوله الذى اسلف نقله الاستاذ وعده اساسا واهيا وغضب لاجله غضبة مضرية كانت عند ضعفاء العقول قنبلة ذرية سقطت على مقر ابى اسحاق فصيرته اثرا بعد عين الرد على الثانى من الاوجه ان يقال فيه انه او هى من الاول حيث ان ناصر السنة لم يقل ان الدعوة خاصة بالاميين العرب فلا يتحمل دليلها وهو القرآن ما يدق عن افهامهم الان وغدا وبعد غد الى يوم القيامة ولو اتى من ذريتهم او غيرها من له علم الخضر وحكمة لقمان وعقائد الما تريدى والاشعرى

وفقه مالك والنعمان فنزيد حينئذ على رد المؤلف ونقول سامحك الله يا صاحب «الاعتصام» و «الموافقات» هذه ظلمات بعضها فوق بعض واما الجواب على الوجه الثالث من اوجه الرد فيقال ان الشاطبي ربما لا يسلم ان ما ذكره الاستاذ قول السلف وعلى فرض تسليم سلفيته فلا يسلم ان عجائبه محصورة في كثرة معانيه واذا سلم هاته فانه يحملها على المرادة لاصلاح النفوس والاعمال والنيات لا المرادة لاستخراج المجهولات وتقدير المساحات وتقويم المخترعات ويرد الرابع بان ترك تحميله ما لا تقتضيه الفاظه لا يقدح في الاعجاز وانكار الشاطبي متوجه اليه قطعا

فان من يحمل القرآن من المعاني ما تأباه الفاظه سيء الاعتقاد فيه او جاهل او مراء فكثير من يطلبون السمعة بطرق هذا الباب ويتسابقون فيها وقد يكون صديق احمق اضر من عدو فيقول القرآن فيه كل علم ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة ثم اذ ارد عليه قوله اجهد نفسه في التكلف وهو لا يريد الا تفخيم شان القرآن في قلوب الماديين المكذبين به جاهلا انه غير محتاج للتلفيق ولا لاكتساب رضاهم به بل المنة له عليهم ان رضوا عنه قال تعالى «قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين» وسياتي زيادة بيان وبحث فلنتم دفع ردود الاستاذ على ابي اسحاق الخامس منها يبطله ان الشاطبي رضى الله تعالى عنه لم ينكر ما رد به الاستاذ عنه ولا يقتضي كلامه خلافه لا بطريق المطابقة ولا التضمن ولا الالتزام ولا الالتزام ولا الحقيقة ولا المجاز بجميع انواعه من مرسل وكناية واستعارة ونقول على الرد الاخير السادس ان الشاطبي لا يجهل اتساع دائرة القرآن وغزارة منافعه ومحاصيله المرادة لمنزله كما يشهد بذلك كتاباه المشهوران وانما انكاره متوجه للمتنطعين المتكلفين هذا وان الموضوع غير محتاج الى الاطناب الممل فان وضوحه مستغن عنه «بدري ارق محاسنا ٭ والفرق مثل الصبح ظاهر» ومما يحملنا على الاكتفاء مراعاة ذوي الرأي الجديد المراد تنويره من الاستاذ فانه يكره التطويل الا في المباحث المفتقرة اليه وهذا من محاسنه التي يشاركه فيها كثير من ذوي الرأي القديم الذي لانحتقره ونتمنى مع هذا نصر اوفر الرأيين توفيقا اذ لا عداوة لنا مع احدهما ثم فليعلم الاستاذ دامت كرامته ان دفاعنا عن الشاطبي مبني على نقله عنه هنا اما اذا كان الرد مبنيا على كلام آخر لم ينقله وجب التسليم التسليم والاعتذار بعدم علمنا به «وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين» وبعد فقد وجب ختم مؤانستنا باستماع كلام ابى اسحاق واستمتاعنا بلاليه الزهرية الزهرية واشراقها وتارجها المتظمنة انكاره على من يدعون ان في القرآن ما لا يستفاد من لغته العربية وتنافيه معاني مفرداتها

وتراكيبها ويرفضه الجزم بكونه قرءانا بلسان عربي مبين فنقول يا صاحب الكتابين المنورين للفكرين الجديد والقديم قد امسى لسان حالك حولنا يقول

وإن سبيلي واضح لمن اهتدي ولكنها الاهواء عمت فاعمتى

فوادعا وداعا وشكرا شكرا وحنينا حنينا فقد ابتليتم في عصركم بفتن كنتم صوارم في اعناقها وابتلى عصرنا باشد منها فلم نتحرك ولم نجرح لها لسانا او نروع منها جنانا ومن اهونها تطويل الخطب الجمعية القائمة خطبتاها مقام ركعتين فقد ادت مخالفة السنة فيها الى تاذي المصلين واضنتهم بالتبرم والسآمة اذ فيهم المبتلون بهرم او عجز عن الامساك او مرض او ضعف او حقن او حقب او جوع او خوف حرمان من شغل لا يسمح اصحابه باي تاخير عن الوقت المسموح فيه بالتخلف وقد ادى هذا التطويل الى ترك الجمعة من كثير فيالها من مصيبة سببها الحرص على الهداية من البعض والتمتع بالاعتلاء الطويل من الآخر والرغبة في الشهرة بين العوام من غيره ونشا عما ذكر صار الجامع المركوب منبره لخطيب من هذا النوع يقصده كثير ممن لا يصلون حبا في استماع النوادر والتحدث بها وقد ذهب التيار بهؤلاء الى ان هموا بمنع خطيب حرصا على استدامة نائبه لانه لا يتقيد بسنة التقصير وتحدثت بذلك المقاهي وبعضهم يحمله حرصه على الاهتداء ان يصف المكروه بالحرمة والحرام بالكفر ولكن هذا الحرص لم يزد الناس الا اقبالا على ما هم فيه وليس لهم من الخطابة الا المتعة باستماع ما يحلو لهم منها اذ لا يدخل القلب كل ما يقرع الآذان وبقدر اقتراب التعبد من قيود الشرع ينتفع به الانسان ولذا حكى عن العلامة الصالح الزاهد الخطيب بجامع سبحان « الله » الشيخ عبد الله الدراجي رحمه الله انه كان أقصرهم خطبة واشدهم تاثيرا وتنويرا ولله في خلقه اسرار ونقلوا ان امير عصره تبرع عليه بذهب كثير بعد انتهاء درس الختم في اواخر رمضان ففرق جميعه قبل مغرب ذلك اليوم ثم صلى ودخل بيته فطالبته العيال برغيف فقال ما ظننت افتقارنا وخرج فاعترضه به احد المصلين فرجع به اليهم فرحا وشاركهم فيه ولنختم هذا بما لعله يكون عظة لمن شذ من خطبائنا واختار البدعة على السنة واذا انكر عليه اخذته العزة بالاثم وقال ذاك زمان وهذا زمان ومن لم يعجبه فعلنا فلا يفعل معناه هي ان اعجميا حاجا وقف بمنى لرمي الجمار فسأل عن فائدته فقيل ايلام الشيطان واهانته لانه تأتي به الملائكة وتوقفه في المرمى فقال سارميه بصخر يمزق اوصاله ويدق قذاله لا بمثل ما ترمونه به فقال

لم اجد الحجيج الذي لم يرزق ذوق بعض خطبائنا ارم بمثل هذا حجـا لانه الوارد اما اذا رميته بمثل قطع الجبال زدته كلبا وبعثت فيه لذة وطربا وهناك ايضا ملك كثرت السرقات في مدته فعاقب عليها بالقتل فازدادت كمية وكيفية فتعجب وسأل عن السر فقال له وزيره الموفق ان سبب الكثرة الخروج عن القطع الذي امر به خالق التوفيق والعصيان والمنح والحرمان فصلى الله على من قال « من ام الناس فليخفف فان فيهم الضعيف والسقيم وذا الحاجة وفي هذا الحديث روايات كلها تفيد طلب التخفيف وتبين علته فرحم الله الشاعر الفقيه المضمن للحديث السالف في قوله

رب امام عديم ذوق يؤم للناس ثم يجحف

خالف في ذاك قول طه من ام الناس فليخفف

هذا واذا كانت المقاصد التطويلية صالحة او غير صالحة فلا مانع من تحصيلها في التبرع بالقاء الدروس ولو فوق المنابر واراحة المصلين فانها تراد وتتسع لغير ما تراد منه الخطبة وتضيق عنه فهل من سوط بل صوت يرفعه علامة القطر وفخره ذو العقل الراجح والفضل الواضح يكبح الجماح ويقود الفلاح فانه عمدة الفتوى وموطن المعزة والتقوى

لسنا نسميك اجلالا وتكرمة فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا

اذ انفردت وما شوركت في صفة فحسبنا الوصف ايضاحا وتبيينا

هذا وانه لا ينبغي ان نترك ما جرت اليه المناسبة من اشارة الى اسرار كلام الله التي لا يعقلها الا العالمون الذين ابو اسحاق من اعيانهم وهي انه شفاء ورحمة بوصف منزله ولا تنقضي عجائبه كما نقل الاستاذ عن السلف فاذ وجدنا مثلا بعض آيات فيها شفاء لادواء جسدية وبعضا لنيل رغائب دنياوية بغير الاسباب المعتادة او معها وبعضا آخر يقمع كيد الشيطان ويتحصن به من الانس والجان وبعضا آخر من الاسقام القلبية وهي ما عبر عنها حجة الاسلام الغزالي بالمرديات وقد حققت التجربة كثيرا من ذلك فاذا انتفعنا بشي من هذا قلنا انه من عجائب الذكر الحكيم وبركاته الا انه لم ينزل لاجلها اصالة وانما نزل للاصلاح البشري من من حيث العقائد والخلق والمعاملات والعبادات وكذا اذا وجدنا كشف بعض الدقائق العلمية قلنا هذا من فضل ربي وعجائب كلامه والشاطبي لا يمنع مثل هذا

وانما ينكر التوسع والاستغراق فيه والانقطاع اليه والانصراف عما نزل له كما ابتلى كثير حتى من العلماء الى ان اوهمت حالتهم من لم يدر انه ما نزل الا للنافع التي يبحثون عنها ولا يهمهم شيء مما عداها من منافع الاخرة فهم مثل من اضاع العسل لاجل الشمع واللباب للقشر والنوى فاضاعوا منه منافع الدارين وهي البحث عما نزل لاجله ابتداء ثم العمل به واقبلوا على ما يفيدهم في دنياهم فقط وهؤلاء هم مراد الشاطبي كما لا يخفى على اللبيب حيث رأى منهم الانصراف التام الى ما تستخرج به الكنوز ويدفع النحس ويدر الرزق ويسوق المحبة للمبغض ويستميل القلوب وتقضي به حوائج المقبلين على الدنيا اقبال الخنازير الجياع على لذيذ الطعام — « ومن يبع عاجلا منه بآجله لله بين له الغبن في بيع وفي سام » وحاشا الشاطبي ان ينفي عن القرآن دسومته وظني ان الذي حمل الاستاذ علي جمل عدم انتهاء عجائب القرآن وفرة المعاني لا الخواص التي منها ما ذكرنا هو احترام الرأي الجديد والحرص على راحته وخشية اغضابه فحصر عدم انتهاء عجائبه في وفرة المعاني مع ان الخواص الف فيها العلماء والفوها وتلقوا بعضها عن اعيان الصحابة كابن مسعود حين قيل له عند الوفاة ما تركت لبناتك فقال سورة الواقعة نجانا الله ببركته والعمل به من اهوال القارعة

الصفحة التاسعة والثلاثون

« وذهب ابن العربي في العواصم الى انكار التوفيق بين العلوم الفلسفية والمعاني القرآنية ولم يتكلم على غير هاته العلوم وذلك على عادته في تحقير الفلسفة لاجل ما خولطت به من الضلالات الدينية وهو مفرط في ذلك مستخف بالحكماء » لعل ابن العربي يريد ان يصرف المتسببين للقرآن عن اجهاد الفكر في الفلسفة العميقة العقيمة الى العمل به فانه يوجد في كل عصر فريق من المتسببين اليه كثرتهم تنمو كلما انقضى عصر دابهم البحث عما يعظمه عند المكذبين به المتعنتين حتى سمعت في عصرنا بعض المدعين المائعين يقول امام رجل من فضلاء المستعربين ان القرآن اشد الكتب السماوية تحريضا على الجمع والمنع والاستغراق في طلب المال والجاه والاعراض عن ذكر الموت وقد شعر المستعرب الذكي بمراده فقال له ان صدقت في هذا ولا اخالك فقد نفرت اهل الكتاب منه لان الكتب السماوية تامر بالخير

وبما ذكرته عن القرآن شر مكشوف ، وخلق غير مالوف . فقال بعض الحاضرين
ان صاحبك من اجهل الناس به وبتعاليمه وانما هو من حفاظ كتابه ، من هنا نبدأ »
الذي جمع صاحبه فيه بين البعر والدر فذهبت مساويه بمحاسنه ثم انطوى المجلس
عن ضحك وانشراح من البعض وعبوس وانقباض من آخر ومنهم من ينسب المفسر
الذي لم يصرف الهمة الى الكدح في استخراج النكت البلاغية الى سقوط الهمة
والقناعة بالدون ولو اتى ذلك المفسر بمثل فلق الصبح من فيوض القرآن والادلة
على اعجازه من غير الناحية المنظور فيها الى علم البلاغة وتعامى على ان حجية
القرآن البلاغية ذهبت من عصور انقراض المطبوعين عليها وان كانت مسلمة عند
غيرهم للقطع بالعجز عن معارضة القرآن من ناحيتها وغير ناحيتها فراى اهل
الهمة العليا من المفسرين التوجه الى الحجة الناهضة في كل عصر وبين كل امة
وفي كل جيل اهتدى الى الدين كثير من العجم متخذين لغتهم الاعجمية وسيلة
اليه وفي الترجمة عند الموفقين شيء ورى وفيهم من سلك في اسلامه منحى صوفيا
كالشيخ عبد الله الفرنسي الذي ليس له من لغة القرار كثير ولا قليل وهو الآن
متمسك بحبله المتين صابر على البؤس والجفاء والطعن من سفهائنا استبعادا لاهتدائه وهو
الاعجمي عندما كادوا ان يخرجوا منه افواجا والله متولى السرائر وقصد هؤلاء البلاغيين
بتحقير من لم يسلك سبيلهم من موفقي المفسرين اعداد الناس لقبول منتحلاتهم
المنبوش عنها في الكتب المدفونة عندهم متى ظهرت او السخافات التي اعتمدوا فيها
انفسهم وكلامنا هذا لا ينبغي ان يعد طعنا في استعظام بلاغة القرآن فانها لا تنهيها
العصور ولا تبليها الدهور وانما هو انكار على التعاظم والتحقير الناشئين عن الاعجاب
والغفلة عن العيون التي يستحيل ان يسترها التعاظم والشموخ ما دام عارفوها بقيد
الحياة ثم ان ابن العربي لا نشك في ان الحامل له على استهجان الخوض في الفلسفة
والإفراط فيه ما تطاير من شررها على المعتقدات الاسلامية حتى بلغ الامر بضعاف
الاعتقاد ان جعلوها حكما مطاعا ومسبارا عادلا يقبلون به ما وافقها ويتركون ما
خالفها فكان مَسْلَكُهُ بمنزلة قوله للفلاسفة والمتفلسفين دعونا نستنشق عبير القرآن
خاليا من الابخرة الكريهة فهو حجة لكم ان وافقتموه وحجة عليكم ان خالفتموه فلنا
الغنم في الحالتين وعليكم الغرم في احداهما فافراطه حينئذ محمود لا يخلو من الحكمة
كما ان مخالفيه الخائضين فيما ابى الخوض فيه من علماء المسلمين لم يحملهم على
سلوكهم الاقصد التأييد ، واشهار التمجيد ، والاعمال بالنيات ثم انا معشر الخلف
اذا نظرنا الى ما نحن عليه امام القرآن وجدنا انفسنا كقوم اخذ العطش بحلاقيمهم
حتى بلغتها ارواحهم فتدفق عليهم السلسبيل من ارض وهبها لهم من اراد حياتهم

فاخبرهم عابر سبيل بان ارضهم بها معادن ثمينة فشغلوا بالبحث عنها وعموا عن مائها وحرثها وغدوا معرضين عما فيه صلاح ابدانهم وبقاء حياتهم حتى افضى بهم الاقبال والاعراض الى ان كانوا من الخاسرين وهذا هو الذي اخاف ابا اسحاق الشاطبي رضي الله عنه فهو لم يقل الا حقا يحبه الله ويرضاه ولا يقر تحميل القرآن من المعاني ما تأباه لغته العربية ولا تتحمله افهام اهلها

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

فاشتغالنا الآن باخراج النكت البلاغية والمطابقات الفلسفية مع الاعراض عن العمل صيرنا مثل هؤلاء ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ومما يملأ النفوس اسى ايضا التهافت على اقامة الاعتراضات على عظماء العلماء الذي جدوا عصورهم بالتآليف المفيدة والاعمال الصالحة والتخطئة لهم والقدح فيهم المقصود بهما التعاظم اذ لا مجيب يخشى ولا نصير الا الله فلا مانع حينئذ من التطاول نزولا على العمل بالمثل .

خلا لك الجو فبيضي واصفري ... ونقري ما شئت ان تنقري

ومن ملائمات الموضوع ما حكى عن ابن مالك صاحب الالفية النحوية الشهيرة فقد اراد ان يتغالى في تفضيل الفيته على الفية ابن معط زميله في العلم والتأليف ويقدر التفوق المجمل بعد قوله :

وتقتضي رضا بغير سخط ... فائقة الفية ابن معطي

فقال : فائقة لها بالف بيت . فعجز عن ضم العجز للصدر ووقف كمن لم يكن له عهد بالنظام فرأى ابن معط مناما قائلا له هناك عجز؛ ضمه الى الصدر فقل : والحي قد يغلب الف ميت ـ فحذف ابن مالك الشطر الذي نظمه والغى ما املى عليه وعوضهما بالدعاء لنفسه ولزميله فقال :

والله يقضي بهبات وافره ... لي وله في درجات الآخره

والمدار على حسن النية وسلامة الطوية فرحمهما الله واسكنهما مساكن الابرار هذا ومما يجري الدموع ويقد الضلوع امتلاء عصرنا بمن يزعمون انهم نقاد بَزّوا المتقدمين وظفروا بأخطائهم واقرهم على هذا الهوس المبنى على الغرور والاعجاب افراد عمي البصائر منهم رجل كهل يدعي الادب لفق قولا سماه شعرا مختل الوزن معتل المعنى احسن ما فيه مسروق فقال لا بورك في كلامه مُقرّضا ومادحا

غدوت خصم العصر يسطو حُسَامُهُ ... بمن قد مضوا من جامدين على العرا

وكانوا كفارا وسوسوا خلف حائط ... وكنت كسنور عليهم تسورا

وهذا بعضه اما البقية فهي اشنع وابشع وقد حضره بعض من اطلعهم عليه بانه ربمـا ناله لاجله من الممدوح طرد و اهانه لا قبول وغرامه ولا يدري هل احجم او اقدم

« اولع كثير من المفسرين بتطلب اسباب نزول القران وهي حوادث يروى ان آيات من القرآن نزلت لاجلها لبيان حكمها او لحكايتهـا وانكارها ونحو ذلـك وأغربوا في ذلك واكثروا حتى رفعوا الثقة بما ذكروا . بيد انا نجد في بعض آي القرآن اشارة الى الاسباب التي دعت الى نزولها فكان امر اسباب نزول القرآن دائرا بين القصد والاسراف وكان في غض النظر عنه وارسال حبلهعلى غاربه خطر عظيم في فهم القرآن

وضع اكابر العلماء معرفة اسباب النزول في مكانة تناطح السحاب ، وتعتقـل انظار الطلاب ، لانها مفيدة في نفسها اولا وسلم الى الكشف عن مراد الله ثانيـا فلا غرابة عندئذ ان تتوجه اليها العنايات ، وتتزاحم عليها الباحثات ، فهي جديرة ان يهتم بها من اهلهم الله لدخول الميدان ، ومباراة الفرسان ، وعليه فعذر الاستاذ في ان يجعل بصره حديدا وياخذ الحبل بكلتا يديه ولا يتركه على الغارب لالوم عليه فيه فان التآليف الخالية من بذل الجهد في الاحسان والاصـابة معتبرة عبئا ثقيـلا وطعاما وبيلا لكن العبارات المشعرة باحتقار اصحاب تلك العنايات والحكم عليها بالخلو من الفائدة والايقاع في الارتباك غير محمود فيا حبذا الرفق لو منحه الاستاذ لمن كدحوا في سبيل خدمة الدين وبذلوا من الجهد في بلـوغ هدفهم ما لا يهـون على غيرهم بذله فهم الى الافادة طـامحون ، وعن الثرثرة والجعجعة جامحـون ، والله يجازي بالكثير عن القليل وحسن النيات يدفع الملمات

« وانا عاذر المتقدمين الذين الفوا في اسباب النزول فاستكثروا منها بان كل من يتصدى لتاليف كتاب غير مشبع تمتلكه محبة التوسع فيه فلا ينفك يستـزيد من ملتقطاته ليذكي قبسه ويمد نفسه فيرضى بما يجد رضاء الصب بالوعد ويقول ردني من حديثك يا سعـد غير هياب لعاذل ولا متطلب معـذرة عاذر وكذلك شان الولع اذا امتلك القلب » .

لا ينبغي ولا يجوز لمن يؤلف في الاخبار طرح ما يجده مكتوبا او مسموعا لان هذا خروج عن دائرته وخيانة في تاديته ثم اذا ظهر له بحث فيما نقله يؤدي الى الحكم بصحتهـا او مرضها ذكره محكما الانصاف معرضا عن الاعتسـاف اما الاعراض عن ذكر ما ظهر له بطلانه فهو حماقة بارزة اذ قد يصح عند غيره ما

رآه باطلا ويبطل عنده ما رآه غيره صحيحا لكن كثيرا يخالفون القاعدة فيقعون من شاهق إلى هوة والاستاذ اعزه الله قد اعتذر عن المؤدين واجبهم التاليفي بعذر املاه عليه حب السجع فذكرنا بقاضي «قم» والا فالمتقدمون من المؤلفين لا يبلغ بهم السخف ورقة الدين واستيلاء الشهوة الى الرتبة المذكور بعضها سجعا والخائف من عثرات القلم واللسان لا يجسرا على نسبة المؤلفين من القدماء رضي الله عنهم الى الفضول والهذر والثرثرة وفساد النية فهل من تنوير الفكر الجديد أن نعتقد فيمن لا يرضون بغير الوصال انهم راضون بالوعد كلا.

« ولكنني لا اعذر اساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة فاثبتوها في كتبهم ولم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفا حتى اوهموا كثيرا من الناس ان القرآن لا تنزل آياته الا لاجل حوادث تدعو اليها وبئس هذا الوهم فان القرآن جاء هاديا الى ما به صلاح الامة في اصناف الصلاح فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية الى تشريع الاحكام نعم ان العلماء توجسوا منها فقالوا ان سبب النزول لا يخصص الا طائفة شاذة ادعت التخصيص ولو ان اسباب النزول كانت كلها متعلقة بآيات عامة لما دخل من ذلك ضر على عمومها اذ قد اراحنا علماء الاصول حين قالوا « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

اساطين المفسرين كثيرون وهم امثال ابن العباس وابن جرير والزمخشري والبيضاوي والالوسي والطبرى والقرطبي والرازي والجصاص وابن العربي وغيرهم كثيرون وقد اقتصرنا على تسميه هؤلاء لان لهم تفاسير يتناولها الناس ويطالعونها ولولا ذلك لجعلنا ابن مسعود وعثمان بن عفان ثالث الخلفاء وصاحبيه قبله وابن ابي طالب وابي ابن كعب وابن ثابت وابا هريرة في المقدمه وهؤلاء الصحابة غير مرادين من عبارة الاستاذ وان كانت تشملهم الا ابن عباس فقد يكون مرادا لان له تفسيرا مدونا ينسب اليه فالمانع اذا اندماج تفاسيرهم في كتب التفاسير المدونة وعليه فلا مناص من معاتبه الاستاذ علي شيئين احدهما تعميم رفع العذر عن اساطين المفسرين وفيهم الصحابة وفيهم من لم يذكر سببا للنزول وكان عليه ان يخصص حتى لاينال اللوم العنيف الا من دونوا وذكروا بدون تمحيص اما من لم يدونوا او دونوا ولم يذكروا الاسباب او ذكروا ومحصوا فهم بريئون من هاته المؤاخذة القاسية ثانيهما ترك الاعتذار عن المؤاخذين من اساطين المفسرين بما ذكر عن الوصوليين المفضى لتخفيف الذنب عنهم فما وجه الاعتذار عن قدماء المؤلفين في اسباب النزول وتركه في جانب المؤاخذين من اساطين المفسرين وكلامنا في اصل الاعتذار لا في عينه لانه

اقبح من الذنب ولا يرضى به قطعاً كما اسلفنا بقي ان نقول ان صنيعهم في ذكر اسباب النزول بدون تمحيص لم يتوهم منه احد ينتسب للعلم ان القرآن لا ينزل الا لاسباب ومن توهم ذلك رفعنا وهمه بمثل تعليل الاستاذ واذا اصر فلا ضير عليه ما دام يعتقد ان خالق سبب النزول هو المنزل وهو سبحانه ادري بما يصلح العباد وينفي الفساد فلو اراد ان يقرن نزول كل ءاية اوحاها بسبب خلقه لما استحال فاشفاق الاستاذ من توهم اعتقاد ان القرآن لا ينزل الا لاسباب في غير محله فاعتقاد ءاذكر لا يضر ولا ينفي عن القرآن الهداية والاصلاح فليسكن فؤاده ولينعم بالا فما في الامر خطر على الدين . ولا صولة على اليقين وقانا الله واياه من حب توهين حسن الاعتقاد في سلفنا الصالح وشغلنا بتطهير انفسنا مما خلوا منه والتحلي بما اكتسو به واكتسبوه

الصفحة الواحدة والاربعون

« وقد قال الواحدي في اول كتابه في اسباب النزول» اما اليوم فكل يخترع للاية سببا ويختلق افكارا او كذبا ءاقيا زمامه الى الجهالة غير مفكر في الوعيد ـ وقال لا يحل القول في اسباب نزول الكتاب الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل » اه »

رحم الله الواحدى فقد افادنا ان زمنه كان مفعما بما افعم به وقتنا من دجالين باسم الدين يدعون الغيرة عليه وارادة صونه وهم اضر عليه من اعدائه الكاشحين غير ان اولئك دون هؤلاء خبثا لان غايتهم نيل العد من انصاره . والمرابطين على حفظ آثاره . اما هؤلاء فغايتهم ان يكونوا زعماء يأكلون الدنيا بالدين اكلا لما ثم يتولون الوزارات ويحكمون شهواتهم .

ونحن نحمد الله على قلة عددهم في هذا البلد وانكشافهم لعلمائه الموفقين فاصبح بهم آمنا لا يخشى بخسا ولا رهقا ثم نرجع الى ما نقله الاستاذ عن الواحدي فنخصه بجهلاء علم الحديث وقدماء . واعداء الدين المختفين برداء شفاف او كثيف . اما اساطين المفسرين وقدماء المؤلفين في اسباب النزول فلا يحمل عليهم ولا يقصدون بكلامه وهو لا يعلم انه سيأتي يوم يزج بهم فيه ولو علم ان كلامه سيحمل عليهم وقسره تصريحا او ايهاما لا زاله قبل ان يلاقي ربه

الصفحة الثانية والاربعون

« ففي كتاب الايمان من صحيح البخاري في باب قول الله تعالى (ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا) ان عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان فانزل الله تصديق ذلك (ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا) الآية فدخل الاشعث بن قيس فقال ما حدثكم ابو عبد الرحمن قالوا كذا وكذا قال في انزلت كانت لي بئر في ارض ابن عم لي الخ فابن مسعود جعل الاية عامة لانه جعلها تصديقا لحديث عام والاشعث بن قيس جعلها خاصة به اذ قال في انزلت بصيغة الحصر »

كلام الاستاذ صريح في ان الصحابيين مختلفان فكلام الاشعث رد لقول ابن مسعود وقول ابن مسعود مناف لكلام الاشعث وان الاشعث يرى ان وعيد الآية لا يتناول غير ابن عمه الذي اقتطع حقه بيمين فاجرة وعليه فوعيد ذلك الغير اذا اقتطع حقا لغير الاشعث بيمين فاجرة كما اقتطعه ابن عم الاشعث له غير موجود في الآية ولو بطريق الإشارة ولولا الحديث المفيد المؤاخذة لما كان حرج على غير ابن عم الأشعث في اقتطاع الحقوق بالايمان الفاجرة هذا كله استفاده الاستاذ من تقديم المعمول وقد خطر ببالي ان الحصر اضافي مقصود به الرد على من قال او سيقول ان الاية نزلت في شانه فقط لا في شأن الاشعث وابن عمه وانه لا منافاة بين قولي الصحابيين اذ الاشعث بين ما اجمله ابن مسعود ولم يبطله فكانه قال في نزلت اثر الحديث الوارد عند خصومتي مع ابن عمي هذا اذ اعتمدنا نقل الامام البخاري رضي الله عنه المبين فيه سبب نزول الآية واما اذا اعتمدنا قول بعض المفسرين ومنهم صاحب الكشاف من ان الآية في شان اهل الكتاب الذين كتموا ما فيه من وصف النبيء الامي عن اممهم فقد استغنينا عن بذل المجهود في التوفيق بين الاشعث وابن مسعود .

الصفحة الثالثة والاربعون

« وهذا القسم قد اكثر من ذكره اهل القصص وبعض المفسرين ولافائدة في ذكره على ان ذكره قد يوهم القاصرين قصر الآية على تلك الحادثة لعدم ظهور العموم من الفاظ تلك الايات »

من حقوق الاستاذ سامحه الله ان يضع في تفسيره من اسباب النزول ماانشرح

لي صدره وله ان يترك ما شاء ولا حق لاحد في محاسبته اذ لم يخرج في هذا الصنع عن سنة المولفين مفسرين وغيرهم بيد ان الطعن فيمن ذكروا ما لم يذكره بانهم ثرثروا واساءوا وحيث اوهموا القاصرين الخصوص عنـد ارادة العموم لا وجه له ولو اطمانت نفوسنا لما اطمانت اليه نفسه من الانـكار عليهم لحجرنا واسعا وضيقنا فسيحا وحقرنـا عملا جليلا قاموا به واستحقوا عليه الشكـر لحرصهم على حفظ اثار السلف . وادراكهم ما في ذلك من زاد للاخرة وشرف . وانشاد حالهم عند المرور عليها . والاتصال باخبارها ومغانيها .

امر على الديـار ديـار ليلى ❊ اقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفى قلبي ❊ ولكن حب من سكن الديارا

وهم لا يرون في صنعهم تضليلا ولا ينسبون للغبـاوة من تاهلوا الى مطالعة اسفار التفسير فيخافوا عليهم ما خافه الاستاذ فحسبه حرية الترك . وليس عليه عيب الذاكرين لهامن الفرس والعرب والترك . وحيث ان الثرثرة قد تشفى مـا في الصدر احيانا فاني اذكر لكم ما ضيق به صدري شيخ متوظف في الدرجة العليا فانه رد كلامي السالف بـان اعتراض الاستـاذ خاص بالمفسرين اما نقلة الاخبار فانهم خارجون باعتذاره المتقدم قريبا المتلالىء في ضمنه معنى قول الشاعر المشكور

وحدثتني ياسعد عنهم فردتني ❊ حنينا فزدني من حديثك يا سعد

وبانه لم يقصد تشنيعا على المفسرين فان عملهم حم ومضى على ما فيه من خير وضير وانما قصد سن سبيل قويم ذى اعلام واضحة ونور كشاف يسلكـه الآتون فلا يقعون فيما وقع فيه السالفون من ذبذبة عنـد ارادة التـاليف في التفسير فغلى دمي البارد بحكم السن فهونت على نفسى بقول نعم هذا صحيح كصحة قـول ابى الطيب في كافور مادحا او هاجيا

ولله سـر في عـلاك وانـمـا ❊ كلام الورى ضرب من الهذيان

« وقسم يبين مجملات ويدفع متشابهات مثل قوله تعالى « ومن لم يحكم بمـا انزل الله فاؤلئك هم الكافرون » فاذا ظن احد ان من هنـا شرطية اشكل عليه كيف يكون الجور في الحكم كـفرا ثم ان علم ان سبب النزول هم النصارى علم ان من موصولة وعلم ان الذين تركوا الحكم بالانجيـل لا يتعجب منهم ان يكفروا بمحمد »

لم نطلع على ان احدا ذكر لهذه الآية سبب نزول ولا انها خاصة بالنصارى ولعل هذا القول من جملة المفتوح به وذلك بعيد لاننا تعودنا التنبيه من المؤلف عليه

فلم يبق الا النقل وهو مفقود هنا ونقل صاحب الكشاف عن ابن عباس تخصيصها باهل الكتاب مطلقا سواء اليهود والنصارى ولم يعف المسلمين من وعيدها حيث قال من جحد حكم الله كفر ومن عمل بغيره معترفا به فسق وظلم هذا وان الآية ذكرت بعد التنويه بشأن التوراة كما يفيده قول الله تعالى « انا انزلنا التورية فيها هدى ونور يحكم بها النبيئون الذين اسلموا للذين هادوا ـ والربنيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلاتخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكفرون وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون وقفينا على ءاثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا بما في يديه من يديه من التورية وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التورية وهدى وموعظة للمتقين وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون » فانت ترى انها متوجهة الى اليهود اولا ومباشرة فما وجه اعفائهم من وعيدها وتسليطه على النصارى مع قربهم منها واشارتها الى تعطيلهم حكم التوراة على زانيين محصنين منهم بالرجم ومحاولتهم كتم هذا الحكم وكشف ابن صوريا العالم اليهودي عدوانهم عليها عند تحكيمهم الرسول فيهما بمقتضى ما في التوراة وقد ادت امانته وعلمه وصدقه الى رجمهما واسلامه فيحق حينئذ للنصارى ان ينشدوا قول المتفجع المتوجع

غيرى جنى وانا المعذب فيكم فكانني سبابة المتندم

هذا ولو لا حسن الظن بالاستاذ لحدثتني النفس الامارة بان للسياسة اعوذ بالله من شرها سببية في الحمل المتعسف ولا يمكن ان يريد الاستاذ بسلوك هذا المنهج المشتبه الاعلام في تفسير كلام « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » تهوين الظلم على حكام المؤمنين وادخال السرور على الجائرين منهم مع علمه بان الصحابي الجليل ابن مسعود جعلها عامة في عبارة اوضح واصرح من عبارة ابن عباس رضى الله عنهما وعلى فرض تلك الارادة وقد يفرض المستحيل فما المانع من جعل من شرطية مع ظهوره لاقترانها بالفاء واذا اراد بهذا اخراجهم من الوعيد . فهو غير سديد . لانها للعموم على كل حال كما فهم ذلك ابن عباس وابن مسعود وبقية المفسرين غير الاستاذ ولان سبب النزول لا يخصص كما ذكره الاصوليون واقرهم عليه ونقله عنهم فلو حمل الكفر بالنسبة للمؤمنين على ما اذا انضم الى الحكم بغيره الجحد له والتكذيب به او

الكفر بالنعمة لاحتمل قبوله مرجوحا . وامسى قلب الحاكم بغيرة مجروحا . فلا يجمع بين جرامين وتتعاظم عنده خشية العدوان . وفي دائرتها صلاح للقلب والعمل واللسان .

لكن من رام نفاق الذي   يقوله ينضم خرج الزمان

لكن حالت بالاستاذ عن هذا رغبته في ارضاء الفكر الجديد والله اعلم .

الصفحة الرابعة والاربعون

« وكذلك حديث عبدالله ابن مسعود قال لما نزل قوله تعالى « الذين ءامنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » شق ذلك على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا اينا لم يلبس ايمانه بظلم ظنوا ان الظلم هو المعصية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ليس بذلك الا تسمع لقول لقمان لابنه « ان الشرك لظلم عظيم »

اشتبه على الاستاذ ما يفسره الحديث الشريف الممثل فيه لقوله تعالى «وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » بما يفسره سبب النزول الذي لا يرشد اليه الا الصحابة ومن نقلوا عنهم فشبه ذلك بذا وجوابنا عنه ان التشبيه في مجرد الكشف عن غموض والبيان لمراد يتبادر الى الذهن غيره اذ فهم من الظلم في الآية المعصية والمراد به الشرك وهو اخص منها لانها تشمله وغيره او انه اتى بهذا مجردا عن اعتبار ما ذكر وتقليد للسيوطي في وضعه في الاتقان عقب القران المفسر بسبب النزول من غير تمحيص واذا اصبنا فيما راينا عددنا هذا التقليد من نوادر الاستاذ لان عادته اجله الله محاسبة المؤلفين حسابا عسيرا لا رفق فيه ولا هوادة ولو كانوا من اساطين المفسرين الا ترى انه اغلظ عليهم في قبول كل ما يذكر من اسباب النزول خاليا من التمحيص والبحث واذا صح هذا الاحتمال فهو خروج عن المالوف ، معدود عندئذ من المعروف . فلا غرابة فيه اذ قلب الانسان في تصرف الرحمان

ولكن القلوب لها انقلاب   وحالات ابن ءادم تستحيل

الصفحة الخامسة والاربعون

« لولا عناية كثير من المفسرين بذكر اختلاف القراءات في الفاظ القرآن حتى في كيفيات الاداء لكنت بمعزل عن التكلم في ذلك لان علم القراءات علم جليل مستقبل قد خص بالتدوين والتاليف وقد اشبع فيه اصحابه واسهبوا بما ليس

غليه مزيد ولكنى رايتنى بمحل الاضطرار الى ان القى عليكم جملا في هذا الغرض تعرفون بها مقدار تعلق اختلاف القراءات بالتفسير ، ومراتب القراءات قوة وضعفا كي لا تعجبوا من اعراضى عن ذكر كثير من ذلك وكثير من القراءات في اثناء التفسير .

كلام الاستاذ صريح في ان الحامل له على الخوض في القراءات تقليد المفسرين ولولاه لما خاض فيه لاستقلاله بنفسه واختصاص علماء بارعين فيه بتدوينه واخراجه للناس مصفى لكن تارك العادة يعادى كما يقال فجاراهم يومئذ في ذكره هذا ما يدل عليه ظاهر كلامه وباطنه غير ان استدراكه ناقض اول كلامه لانه جعله محتاجا اليه وواجبا ذكره عليه ولو لم يتعرض له المفسرون لما ذكر من التعليل وهو الصواب لان القراء تتعلق مباحثهم في القرآن من حيث الفاظه والمفسرين من حيث معانيه فان المعانى قد تختلف باختلاف الالفاظ كقوله تعالى « ان المصدقين والمصدقات » الآية فان القراءتين فيها اي بتشديد الصاد وتخفيفها يترتب عليهما اختلاف المعنى فبيانهما على المفسر اكيد والاهمال قصور او تقصير بخلاف البيان في قوله تعالى « ام تسالهم خرجا فخراج ربك خير » فان اختلاف القراءتين فيه باسقاط الالف وثبوتها لا يؤدى الى اختلاف المعنى فهو واجب على القارىء ومستحب من المفسر والفرق مثل الصبح ظاهر وعليه فارادة الاستاذ منا ان لا نعجب من اعراضه عن ذلك الذكر محلة عجب ومجلبة وصب لان ذكرها له اتصال بالتفسير كاتصال الروح بالجسد زيادة على انه مهم في ذاته اذ لا يكاد فن القراءات يحلو للمطالع الا مصحوبا بالتفسير فذكر المفسرين لها اثناءه اعتناء بالمهم او الواجب وزيادة في النور وشرح للصدور ـ قالوا المكرر فيه * قلت المكرر احلى ـ فجازاهم الله خيرا ولا اخال الاستاذ الا موافقا لكنه اراد الايجاز فيه ليتفرغ للاطناب فيما يريده الفكر الجديد ويتنور به وهو مجال متسع واننا نضرع الى الله ان لا يكون مثل ما ذكره في قوله تعالى « ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون » ولعل دعاءنا يستجاب

« ارى ان للقراءات حالتين احداهما لا تعلق لها بالتفسير بحال والثانية لها تعلق به من جهات متفاوتة اما الحالة الاولى فهى اختلاف القراء في وجوه النطق بالحروف والحركات كمقادير المد والامالات والتخفيف والتسهيل والتحقيق والجهر والهمس والغنة ومزية القراءات من هذه الجهة عائدة الى انها حفظت على ابناء اللغة العربية ما لم يحفظه غيرها وهو تحديد كيفيات نطق العرب بالحروف

في مخارجها وصفاتها وبيان اختلاف العرب في لهجات النطق وهذا غرض مهم جدا لكنه لاعلاقة له بالتفسير لعدم تاثيره في اختلاف معاني الآى ولم ارمن عرف لفن القراءات حقه من هذه الجهة »

وجب ان يقال هنـا ان علمـاء المسلمين في جميع اقطـارهم قد عرفوا حقه بالتاليف فيه وتدريسه نظريا وعمليا فمن المعاهد التي شرفها تدريسه وتوجههـا العناية به الكلية الزيتونية عمرها الله بطاعته وجعلت له فيها شهادات بعنوانه عالمية وتحصيلية فهل يريد الاستاذ بعرفان حقه غير ما ذكر من التاليف والتدريس والعمل واعله عبر بهذا لزيادة توجيه النفوس اليه ايقاظا للهمم الخـامدة والطباع الجامدة او ان الاشـارة راجعة لشيء توهم ذكره ولم يذكره واما زعم اهل ظن السـوء انه اراد به الاشتهار بالغلو في المحافظة على القديم استمالة للقلوب وجلبا للدعاية ولو كان الامر حقيقيا لاعتنى به اعتناء يرضيه عندما سنحت له الفرصة فجوابنا عنه انه مجرد اوهام واضغاث احلام يصدق على صاحبها قول ابي الطيب :

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتـاده من تـوهم

« فائمة العربيه لما قرأوا القرآن قرأوه بلهجات العرب الذين كانوا بين ظهرانيهم في الامصار التي وزعت عليها المصاحف : المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام قيل واليمن والبحرين فقرأ كل فريق بعربية قومه في وجـوه الاداء لا في زيادة الحروف ونقصها ولا في اختلاف الاعراب ويحتمل ان يكون القارىء الواحد قد قرأ بوجهين ليرى صحتهما في العربية قصدا لحفظ اللغة مع حفظ القرآن الذي انزل بها ولذلك نجزم بان كثيرا من القراءات في هذه الناحية كان اختيارا كما جزم بذلك قبلنا ابن العربي والزمخشري وغير واحد وقد كره مالك رحمه الله القراءة بالامالة مع ثبوتها عن القراء فدلت كراهته على انه يرى ان القارىء بها ما قرا الا بمجرد الاختيار ولا ضير في ذلك ما دامت كلمـات القرآن وجمله محفوظة على نحو ما كتب في المصحف الذي اجمع عليه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من شذ منهم » .

ما ذكره الاستاذ من قراءة الائمة بلهجات العرب الذين كانوا بين ظهرانيهم لا اعتقد صحته سواء انفرد الاستاذ بذكره او شاركه غيره واقول عوض بعربية قومه بعربية روايته عن شيخه اي الامام الذي اخذ عنه القراءة لانه يجب عليه تقليده والا فلا معنى للرواية عنه اللهم الا اذا عجز عن ذلك التقليـد فيقال انه حينئذ دين الله يسر لا عسر في خاصة نفسه فقط اما ان يروي عنه ما عجز عن

اداثه بلغة شيخه فلا يكون لان اهل ذلك العصر بلغ بهم التحري في شانه الى ان اعتقدوا ان سعادتهم في الآخرة والدنيا لا تاتي الا ببذل الجهد في صيانته من انواع الخطا خفيا او جليا ثم يقال بعد اذا انفتح باب المخالفة للشيخ مراعاة للهجة قوم التلميذ فلماذا لم يعم الجواز المخالفة في الحروف والاعراب وتختص بما عداهما فان قيل ان ذلك يؤدي الى مخالفة المصاحف العثمانية قلنا لا اثر فيها لتلك المخالفة لان الشكل حدث بعد امد طويل من تدوينها والله الموفق ثم ان الاحتمال الذى افضى بالزمخشري وابن العربي الى الجزم بما جزما به باطل او مرجوح والمخالفون لهما وللاستاذ فيه كثيرون عددا وقيمة لانه ينافي قول الجمهور القراءة سنة متبعة وينافي عدالة القراء وامانتهم فان دابهم تبليغ القراءة المروية لهم عن عدول مشائخهم لا بيان ما يسوغ في العربية وما يمتنع ونسبتنا لهم ذلك في مقام الرواية قدح شنيع مناف لحسن الظن فيهم وفيمن نسبه اليهم ولم ادر ما حمل الاستاذ على الشذوذ في نسبتهم للاستخفاف بما سمعوه والتلاعب به ليحافظوا على لغتهم الخاصة خوفا عليها من التلاشي في خضم لغة القرآن واني اتذكر ان مثل ما نسبه الاستاذ للائمة القراء او قريبا منه حمل العلامة الفحل في فنهم عليا النوري الصفاقسي التونسي على هجو الزمخشري سامحهما الله ورحمهما وانا لمن المتمسكين بقول الجمهور والمنتسبين الى النور المتمسكين بقول الحماسي:

وما انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

وانى لنا ان نعتقد ما اقره الاستاذ بعد توزيع المصاحف على اقطارها واستقرار القراءة التي انبنت عليها تلك المصاحف الاستقرار الحاسم للفوضى واعتبار اللهجات القومية والنزعات القبلية خوفا عليها من الاضمحلال وندى التامل من قول الاستاذ ان امام دار الهجرة كره القراءة بالامالة وان الكراهة سببها ان راى ان القارىء بها ما قرأ الا بمجرد الاختيار تقع به الحيرة لمن ينزل الامور منازلها لان كراهة الامام للقراءة بالامالة مشكوك فيها واذا ثبتت وهنت علتها لانها ما ثورة عن ابن مسعود عن النبيء صلى الله عليه وسلم كما في «الاتقان» وقد ذكر انه قيل له اتقرا بغير لغة قومك يا رسول الله فقال انها لغة اخوالي بني سعد ومع هذا فان النطق بها لا ينافي خط المصحف وكل ما لا ينافي خط المصحف لا تمتنع القراءة به كما نقل الاستاذ اتفاق القراء والفقهاء عليه فكراهة مالك التي لم نرها لغير الاستاذ ان سلمناها لا نسلم علتها التي تخيلها ونقول ما كانت الكراهة الا لندرتها وكونها غير لغة قريش اما التعليل باعتقاد ان القراءة بها مبنية على شهوة القاري ورغبته في ذيوع لغة قومه اذا كانت

احمد ناصر الدين قاضي الاسكندرية المتوفى بعد الزمخشري بمائة وخمس وخمسين سنة في كتابه « الانتصاف » عند تفسير « الكشاف » لقوله تعالى « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم » مقنع ومقرع فليراجع رزقنا الله السلامة في الدين والعقل والبدن ما كبس علينا قيد الحياة

وآخر القول هنا ان بدور القراء العدول الذين هم ليسوا عن الحق بعدول متمسكون بقوله تعالى خطابا لرسوله عليه الصلاة والسلام « قل ما يكون لى ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحي الى انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم »

الصفحة السابعة والاربعون

« وقد تروى قراءات عن النبيء صلى الله عليه وسلم باسانيد صحيحة في كتب الصحيح مثل صحيح البخاري ومسلم واضرابهما الا انها لا يجوز لغير من سمعها من النبيء صلى الله عليه وسلم القراءة بها لانها غير متواترة النقل فلا يترك المتواتر وقد اصطلح المفسرون على ان يطلقوا عليها قراءة النبيء صلى الله عليه وسلم لانها غير منتسبة الى احد من ائمة الرواية في القراءات ويكثر ذكر هذا النوع في تفسير محمد بن جرير الطبرى وفي الكشاف وفي المحرر الوجيز لابن عطية فلا تحسبوا انهم ارادوا بنسبتها الى النبيء صلى الله عليه وسلم انها وحدها المأثورة عنه »

قال بعض الناقدين هذا غير متوهم من المسلمين فاولى ان لا يكون محسوبا فالنهى عنه لغو وانا اجيب بانه احتياط وتحر وخوف من الوقوع في محذور قد يدفع بصاحبه الى ان يوسم بالردة والعياذ بالله على القول بان لازم القول يعد قولا وان كان هذا المذهب غير مشهور كما قرر في فن العقائد اذ مما يقدح في صحة العقيدة ان ما نحن عليه الآن في قراءتنا المشهورة لا صلة له بالنبيء صلى الله عليه وسلم على ان الفائدة قد تتوفر لحديثي العهد بالاسلام وقديما

قد قيل ان السلامة من سلمي وجارتها ان لا تحل بحال حول واديها

فنرجو من المنتقد الاول ان يقنع فيقلع وممن لا يرى رايه لكنه راى فيما ذكره الاستاذ وجها آخر للاعتراض وهو توجيه غضب الناس الى ابن جرير والزمخشرى وابن عطيه على سوء التعبير المحوج الى حمل كلامهم على غير الظاهر وانى لما سمعت منه هذا أثنيت على الاول وقلت ان بعض الشر اهون من بعض

« ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون » قرا نافع بضم الصاد وقرا حمزة بكسر الصاد فالاولى بمعنى يصدون غيرهم عن الايمان والثانية بمعنى صدودهم في انفسهم وكلا المعنيين حاصل منهم »

ان ما ذكره الاستاذ في بيان معنى يصدون على القراءتين غير صحيح ومنقوض بكلام المفسرين العظيمين ابن عطية وصاحب الكشاف المنقول عن المفسر ابن جزى مسلما له من غير ترجيح لاحد القولين فقراءة الضم معناها يعرضون وقراءة الكسر يضجون ويضحكون فيصدون حينئذ في الآية قاصر غير متعد على كلا القراءتين خلافا للاستاذ في تعديته على قراءة الضم وبيان معناه على قراءة الكسر هذا بالنسبة لمقتضى معنى الاية اما اللغة فيجوز استعمال يصد بالضم قاصرا ومتعديا

الصفحة الخمسون

« وعندى انه ان كان حديث عمر وهشام بن حكيم قد حسن افصاح راويه عن مقصد عمر فيما حدث به بان لا يكون مرويا بالمعنى مع اخلال بالمقصود انه يحتمل ان يرجع الى ترتيب آى السور بان يكون هشام قرا سورة الفرقان على غير الترتيب الذى قرأ به عمر فتكون تلك رخصة لهم في ان يحفظوا سور القرآن بدون تعيين ترتيب الآيات من السورة »

هذا شك وتشكيك فيما اتفق عليه الخمسة والثلاثون عالما على الاقل الموزعة اقوالهم على هذا العدد والمبنية على اعتقاد صحة افصاح راوى الحديث وحسنه وقد تكون اشياع الاقوال المذكورة فوق هذا العدد باعتبار ان بعض الاقوال البالغة الخمسة والثلاثين يتبعه اثنان او اكثر ثم اذا اعتبرنا انضمام القائلين بانه من المشكلات المفوضين علمه الى خالق الكائنات تعاظم العدد وقد كل الاكثر عن شرح الحديث بما تطمئن له النفس وفوض الآخر ومع هذا لم يتجاسروا على الطعن فيها بقادح وقد ذكر صاحب مناهل العرفان ان حديث نزول القرآن على سبعة احرف مروى عن عشرين صحابيا منهم الخلفاء الاربعة اليس في هذا دليل قاطع على سلامتها وفي « الاتقان » للامام السيوطى وفيما تقدم عن مناهل العرفان للعلامة الزرقانى ما يدفع شك الاستاذ وتشكيكه فكان جديرا بنا ان لا نبدى في شانها الراى الفطير وان لا نجازف في التعبير تصريحا او تلويحا واما رجوع الحديث الى ترتيب آي السور وتفسيره به آى فهو ابعد الاقوال الثلاثة المنتقاة من الخمسة والثلاثين واقربها الى الاشكال والايراد والفرق أبين من الفجر الصادق لذى البصر الحديد واقل ما

يقال فيه كيف يكون الترتيب في السور التى عدد آياتها دون السبع كسور ـ الابتر ـ والعصر ـ والاخلاص ثم يقال ان هذا الفهم يؤدى الى ان الحديث منسوخ ولو كان محكما لظهر اثره في خط المصحف العثمانى ولم يقل بهذا النسخ احد من علماء الحديث المتكلمين عليه فلو اختير احد الاقوال المنتقاة المعزوة لاولئك الثقاة او التفويض لكان الكلام احلى وترك الابتكار اغلى واعلى والله يهدى من يشاء الى سراط مستقيم

« ومن الناس من يظن ان المراد بالسبع في الحديث ما يطابق القراءات السبع التى اشتهرت بين اهل فن القراءات وذلك غلط ولم يقله احد من اهل العلم واجمع العلماء على خلافه كما قال ابو شامة فان انحصار القراءات في سبع لم يدل عليه دليل ولكنه امر حصل اما بدون قصد او بقصد التيمن بعدد السبعة او بقصد ايهام ان هذه السبعة هى المرادة من الحديث تنويها بشانها بين العامة »

غفر الله لابى شامة في تجويزه الاحتمال الثانى والثالث فانه يلزم عليهما اعتقاد رقة الدين فيمن حصروها في السبعة لان الحصر المبنى منهم على ما ذكره شبه تلاعب بالقراءات وبالقرءان اذ لم يكن الحامل على هذا الحصر قصد اصابة الحق وانما هو ضرب من التصنع مشوب بتدجيل فهذا العدد حينئذ مبنى على شفا جرف هار . ومن العجب ان يمر عليه المولعون بالانتساب الى التحقيق والابتكار . بدون هدم او انكار وكان حال القراء في مثل هذا قائل ـ

صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به   وان ذكرت بسوء عندهم اذنوا

اللهم صن لحومهم من المضغ كما صنت كلامك هذا وقد اطلعت بعد ان سودت ما سلف على ان ابا شامة لم يقله وانما نسبه اليه سوء فهمى لكلام الاستاذ والعذر عند كرام الناس مقبول

الصفحة الاثنان والخمسون

« واما ما خالف الوجوه الصحيحة في العربية ففيه نظر قوى لانا لا ثقة لنا بانحصار فصيح كلام العرب فيما صار الى نحاة البصرة والكوفة وبهذا نبطل كثيرا مما زيفه الزمخشرى من القراءات بعلة انها جرت على وجوه ضعيفة في العربية لا سيما ما كان منه في قراءة مشهورة كقراءة عبد الله بن عامر « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركائهم » ببناء زين للمفعول وبرفع قتل ونصب

أولادهم وخفض شركائهم »

موجب التعليل بعدة تعويض لفظة الصحيحة بلفظة المشهورة كي يستقيم لنا هذا الإبطال وندخل قراءة ابن عامر في العربية الصحيحة التى لم تشهتر اما بدون هذا التبديل فانه لا يمكن الابطال فيحل محله التايد والحكم على قراءة ابن عامر بفساد عربيتها في نظر الزمخشري لا بضعفها فحسب

الصفحة الخامسة والخمسون

« امتن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله » نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » فعلمنا من قوله احسن القصص ان سياق القصص القرآنية لم يكن مساق الاحماض وتجديد النشاط وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير او شر لان غرض القرآن اسمى واعلى من هذا ولو كان كذلك لساوى كثيرا من قصص الاخبار الحسنة الصادقة فما كان جديرا بالتفضيل على كل جنس القصص وابصر اهل العلم ان ليس الغرض من سوقها قاصرا على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير او الشر ولا على حصول التنويه باصحاب تلك القصص في عناية الله بهم او التشويه باصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم كما تقف عنده افهام القانعين بظواهر الاشياء واوائلها بل الغرض من ذلك اسمى واجل »

اعظم ما في قصص القرآن ما نفاه الاستاذ صورة او حقرة ولو لم تحو الا المحقر عنده فقط لكان كثيرا لكن الاستاذ لم يقنعه ما اقتصر عليه القانعون الذين انحطت هممهم عن بلوغ الثريا في نظره وقد استصغر عظيما الى ان افضى به هذا الاستصغار الى ما ياباه الادب حيث قال ولو كان كذلك لساوى كثيرا من قصص الاخبار الحسنة الصادقة الخ فهل تفوقها بالاعجاز وتقويتها لقلب الرسول واتباعه وتهديدها للمتعنتين من اعدائه والايقان بانها من عند الله لا يرفعها عن التسوية بغيرها ويجعلها اعلى منها لفظا ومعنى فرحم الله من قال ـ ومن البرما يكون عقوقا ـ وسامح ابا الطيب في قوله ـ

اذا بارزت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فانها وان كانت جارية ان مجرى الامثال فلطالما قدت بحميها اعناق الرجال ومن عجائب هذا البيت علقه فريقان مختلفان ذوقا وسعيا احدهما اهل

الزهد والقناعة والآخر اهل الحرص والطماعة فالاولـون عاملون بهـا في التحلي بالكمالات النفيسة الباقية ذخائرها وابتغاء ما عند الله بالطـاعة والجود بـالحقوق . وللآخرون مولعون بالحطام وابتغاء ما عند الناس من ثناء والاسراف فيما فيه رياء وسمعة وعقوق . هذا واني رايت بعض القانعين بالاقتصار على ما ذكروا من البيان لفوائد قصص القرآن رايتهم مسوقين بغرض شريف وهو الاقتداء بقـوله جـل شانه وتعالى سلطانه « لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب فقنعوا بذكرها فـلا ينبغي ان ينسبوا الى مهانة النفس ويوجه اليهم لفح التطـاول المـدفوع بـالغرور والاعجاب . ويتوب الله على من تاب .

الصفحة السادسة والخمسون

« الفائدة الاولى ان قصارى علم اهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة اخبار الانبياء وايامهم واخبار من جاورهم من الامم فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التى لا يعلمها الا الراسخون في العلم من اهل الكتاب تحديا عظيما لاهل الكتاب وتعجيزا لهم بقطع حجتهم على المسلمين قال تعلى « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فكان حملة القرآن بسبب ذلك احقـاء بان يوصفوا بالعلم الذى وصفت به احبار اليهود وبذلك انقطعت صفة الاميـة عن المسلمين في نظر اليهود وانقطعت السنة المعرضين بهم بانهم امة جاهلية وهذه فائدة لم يبينها من سلفنا من المفسرين

في كلام الاستاذ محذوف لا بد من اعتباره ليصح كلامه اذ يؤدى عدم تقـدير المحذوف الى بطلانه لانه لم يطلع على جميع التفاسير وان كانت خزانته صانهـا الله عامرة بما لذوطاب من مملوك ومستعار في حكمه كشرح المـرزوقي على ديـوان الحماسة مثلا واذا عارض احد في هذا وقال انه مطلع على جميع التفاسير وان مكتبته مشتملة على كل مطبوع منها ومخطوط فاننا نرده الى الصـواب بقول الاستـاذ نفسه المتضمن انه لم يطلع على تفسير احكام القران لصاحبه اسماعيل بن اسحاق بن حماد المالكى المجهور مع اصحاب الهمم العالية من المفسرين كما ذكر بصفحة اربعة وسبعين من هذه المقدمات التفسيرية وبهذا تبطل دعوى هذا المعـارض ان الاستـاذ اطلع على جميع التفاسير ولهذا نفى عنها التعرض الى ما ذكـره مختصابه ونسبته لنـا الى الاعتساق في البحث لا دليل عليه فاي حرج اذا قلنـا انه اراد ان يختم كلامـه عن الفائدة الاولى بقوله « فيما اطلعنا عليه » فغفل فلا شك انهـا مرادة له قطعـا وان

ضرب المعارضون عرض الحائط بكلامنا فالله حسيبهم ثم ان اختصاص الاستاذ بذكر هاته الفائدة بالنسبة للمفسرين قد يكون واقعا اما بالنسبة الى غيرهم من العلماء فلا فانهم ذكروا من اوجه الاعجاز اخباره الغيبية التى اطلع على بعضها اهل الكتاب وسلمها بعضهم بلسانه وقلبه وبعضهم بقلبه فقط وفي ذلك اجمال لما افصح عنه الاستاذ فله فضل الافصاح

« الفائدة الثالثة ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على اسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدي الامة وتحذر قال تعلى « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا »

كنت جالسا بزاوية باحدى الاماكن العامة اطالع هاته المقدمات فبلغت للفائدة الثالثة منها فاذا شاب حاد النظر لا اظنه يتجاوز الثلاثين يجلس قريبا مني ويحملق في الكتاب ثم قال ما تطالع فاريته اسم الكتاب فقال اسمعني منه فقلت طالع بنفسك فتناوله وقال معتزا انه نال العالمية الزيتونية منذ سنتين فتشاغلت عنه بالجريدة الى ان اتممتها فرجعه الى قائلا انه طالع مقدمة القصص كلها فكان جميع ما فيها معرفة التاريخ لذاته وللاعتبار به فاي نتيجة في التكثير من المفتوح به وغيره فقلت لست المؤلف وان ابيت الا الجواب فنزلها شرحا للعبرة وايضاحا لها فقال انه لا يرى ذلك لمن يريد ان يسلك سبيل الاختصار ويذكر ما لا بد منه فقلت له لاباس في سلوك المؤلف فانشد

وعين الرضى عن كل عيب كليلة كما ان عين السخط تبدي المساويا

فانشدت قوله : ـ وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

فاحتد قائلا الم تعلم ان الشهادة الكبرى بيدي فقلت قد علمت يا بني واسال الله لي ولك الوقاية من الحدة والتسرع والاعجاب فقال دعنا من الدعاء فلسنا في الجامع فقلت لاضير فانه سميع قريب فظهر البشر عليه وقال دعنا من هذا ما ترى في سياسة المؤلف وهل انت من اشياعه فقلت اني من اشياع من نسبوا اليه الاستعاذة من السياسة وما اشتق منها وان حظى فيها تفهم اخبارها واباية السباحة فيما لا يعود علي بخير في اخراي ولا يستقر بي على القصد والكفاف في دنياي الى ان يبلغ الكتاب اجله فقد كبر السن ووهن العظم ولا ازيدك فقال احسنت في هذا لان اصحاب العمائم لا يتقنونها فقلت لا تاثير للثياب على التفكير والنيات والاعمال فاتركوا الفضول تستريحوا وتريحوا واحترموا اصحاب القلوب السليمة والاعمال القويمة من متعممي الرءوس او من امة المجوس واتخذ انت في معاملة الناس غير هذا المنهج فقد اخذت الكتاب

بغير مجاملة واعدته بغير شكر وحاورت بغير ادب وحقرت اصحاب العمائم وانا من عامتهم فوقف قائلا اسرفت ايها الشيخ في التعنيف وسوء الظن اليسوا اولياء نعمتي ورافعي جهالتي واسباب التحلي بعالميتي فاني لا اريد التعميم ولا اقصد الترييم ثم ودعني بادب طالبا الغفران معتذرا عن الحدة والطغيان يسر الله له من الخير ما اراد ووفقه الى سبل الرشد والسداد وبعد فقد سالت عنه من يعرفه فاخبرني بانه من نوابغ من انتجتهم « الصادقية » وانه محام متربص بالقانونين وانه لا علاقة له بعالمية الجامع الاعظم فقلت في نفسي غفر الله له تلك الفرية وذلك العنف ورحم الله من قال : ـ وجرم جره سفهاء قوم ❊ وحل بغير جارمه العذاب

الصفحة السابعة والخمسون

« الفائدة الثامنة ان ينشيء في المسلمين همة السعي الى سيادة العالم كما سادة امم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب اذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضا فكان منتهى السيد منهم ان يغنم صريمة ومنتهى امل العامي ان يرعى غنيمة »

معاذ الله ان قصص القرآن ليس فيها ما نسبه الاستاذ البهلوان كره ذلك اصحاب الفكر الجديد فهي لا تبعث في المسلمين الا الزهد ولا تدفعهم الا لاصلاح النفوس وتقويم النيات والاعمال وقد عافوا بها الجشع والشره والحرص والرفاهية والتنافس في الدنياوات والتكاثر منها والتعالى واشربت قلوبهم حب السعي في رضاء من يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين نعم ورد في كلامه تعالى انه اعزهم او سيعزهم فمن ذلك « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ومنه « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصلحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا » فانقادوا لمراد الله وفكوا رقابهم من حكم الظالمين الضالين المضلين من عبدة الاصنام والنيران وادخلوا دين الله في قلوب الغافلين عن هداية الاسلام وحاربوا اعداءه الباذلين جهدهم في اركاسه وتعطيل دعوته وجعلوها مالكة لنفوسهم اذ وقفوها على خدمة تلك الدعوة فبلغوا ما اقدرهم الله عليه ولم يزاحموا من انتصروا عليهم الا في مكارم الاخلاق التي بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لتتميمها فبقى عزهم في شموخه وعنفوانه ما بقيت صبابتهم في رضاء الله ولما تحول حبهم الى الدنيا وعضوا عليها بالنواجذ وصارت غايتهم اخذ ذلك العز في التدلي الى ان صرنا الى ما نحن عليه فصدق علينا قوله تعالى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما

بانفسهم » فالقصص القرآنية لم تطبع في نفوس المسلمين نهمة الهيتلريين والموسولينين كما يشمه كلام الاستاذ والذي حمل المسلمين على بذل ارواحهم في اصلاح الارض حسيا ومعنويا قصد شريف ساقهم اليه القرآن وتعاليم سيد ولد عدنان

الصفحة الثامنة والخمسون

« وفيما ذكرنا ما يدفع عنكم هاجسا ربما خطر لكثير من اهل اليقين والمتشككين وهو ان يقال لماذا لم يقع الاستغناء بالقصة الواحدة في حصول المقصود منها وما فائدة تكرار القصة في سور كثيرة وربما تطرق هذا الهاجس ببعضهم الى مناهج الالحاد في القرآن»

هذا الهاجس لا يدفع بما ذكره الاستاذ قبل ولا بما سيذكره بعد بالنسبة للمتشككين لوضوح الامر وظهور الفائدة في التكرار الا ان مرض قلوبهم يحملهم على تحسين القبيح وتقبيح الحسن وتكلف المطاعن ليشككوا غيرهم او ينعتوا بالذكاء والتمحيص او يعذروا في دهريتهم الحقيقية او المتكلفة فهؤلاء لا دواء لهم الا ما يقذفه الله في قلوبهم من نور وأمّا واصحاب اليقين فقصاراهم ان تنشرح صدورهم ويزدادوا ايمانا ومحال ان يفقدوا عند جهله اطمئنانا او تستفزهم حيرة فيتقلدوا عوضه كفرانا

الصفحة التاسعة والخمسون

« الخامس ان تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها باساليب مختلفة ويذكر في بعض حكاية القصة الواحدة ما لم يذكر في بعضها الاخر » سئلت عن معنى الجملتين الاخيرتين فتحيرت ثم اطمانت نفسي الى ان اقول ان الاستاذ ربما اراد ان القصة المذكورة في موضعين او مواضع قد يحذف منها في موضع ما يذكر بها وهي في موضع آخر والمامول اني لا بست الصواب واحسنت الجواب والا ففي الاجر الواحد خير كثير لمن يقنع ودليلي على صحة بياني ما ذكره بعد وهو قوله فيقتصر على موضع العبرة منها في موضع ويذكر آخر في موضع آخر

« فهذه تحقيقات سمحت بها القريحة وربما كانت بعض معانيها في كلام السابقين غير صريحة »

كان الاستاذ يشير بهذا الى الاستاذين المرحومين محمد عبده مفتي مصر

المشهور ورشيد رضا صاحب مجلة المنار فانهما جالا في الموضوع جولة فسيحة ولا اتيقن انها كانت منهما معا او من احدهما فقد طال الزمان وتعسرت المراجعة فودعناها توديع ابن زيدون لولادة معتذرين عن الوصال بما اعتذر به اذ قال

ولا اختيارا تجنبناك عن كثب　　لكن عدتنا على كره عوادينا

صفحة ستين

« وتسمية هذه الاجزاء ءايات هو من مبتكرات القرآن قال تعلى هو الذي انزل عليك الكتاب منه ءايات محكمات وقال كتاب احكمت ءاياته ثم فصلت وانما سميت ءاية لانها دليل على انها موحى بها من عند الله الى النبيء صلى الله عليه وسلم لانها تشتمل على ما هو من الحد الاعلى في بلاغة نظم الكلام ولانها لوقوعها مع غيرها من الآيات جعلت دليلا على ان القرآن منزل من عند الله وليس من تاليف البشر اذ قد تحدى النبيء به صلى الله عليه وسلم اهل الفصاحة والبلاغة من اهل اللسان العربى فعجزوا عن تاليف مثل سورة من سوره فلذا لا يحق ان يسمى جمل التوراة والانجيل ءايات اذ ليست فيها هذه الخصوصية في اللغة العبرانية واما ما ورد في حديث رجم اليهوديين الذين زنيا من قول الراوى « فوضع الذى نشر التوراة يده على ءاية الرجم » فذلك تعبير غلب على لسان الراوى على وجه التشبيه لها بجمل القرآن اذ لم يجد لها اسما يعبر به عنها »

يتبادر الى الذهن ان قول الراوي فوضع الذى نشر التوراة يده على ءاية الرجم يتبادر انه اعتقد صحة التعبير عنها بآية تعبيرا حقيقيا لانها من عندالله بواسطة كليمه موسى عليه وعلى نبينا وسائر الانبياء الصلاة والسلام او مجازيا على وجه التشبيه لها بآية القرآن اما التعليل بانه لم يجد طريقا للتعبير غير ذلك فقد يقال لصاحبه قد حجرت واسعا وضيقت فسيحا أليس في امكان الراوى ان يقول على كلمة الرجم او كلام الرجم او كلمات الرجم اذ الرواة لا يصلون في العى الى فهاهة باقل ولو بلغوا فيه ما بلغوا فكيف وهم اقطاب البلاغة وفرسانها المبرزون وفطاحل البيان فسبحان الملك الديان

الصفحة الواحدة والستون

« قال ابو بكر ابن العربي « وتحديد الآية من معضلات القرآن فمن ءاياته

طويل وقصير ومنه ما ينقطع ومنه ما ينتهي الى تمام الكلام وقال الزمخشري الآيات « علم توقيفي » فاما ما اختلف السلف فيه من عدد آيات القرآن بناء على الاختلاف في نهاية بعضها فقد يكون بعض ذلك عن اختلاف في الرواية كما قدمنا انفا وقد يكون بعضه عن اختلاف في الاجتهاد »

الاحتمال الثاني غير صحيح الا اذا اراد الاستاذ الاحتمال العقلي المجرد عن القرينة وهو عدم وجود الرواية في تحديد البداية والنهاية اصلا او ضياعها والاول ممنوع لاقتضائه التقصير في التبليغ والثاني مثله لاقتضائه تقصير الصحابة في حفظ ذلك المبلغ

الصفحة الثانية والستون

« وعلى ترتيب قراءة النبيء صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن كل من حفظه كلا او بعضا وليس لهم اصل في ذلك الا ما عرفوا به من قوة الحوافظ ولم يكونوا يعتمدون على الكتابة وانما كان كتاب الوحي يكتبون ما انزل من القرآن باذن النبيء صلى الله عليه وسلم ولعل حكمة ذلك أن يرجع اليه المسلمون عندما يحدث لهم شك او نسيان ولكن ذلك لم يقع

جرت عادة التعبير العربي في مثل هذا الترجي ان يبتنى على خفاء في الحكمة وهو هنا امر النبيء صلى الله عليه وسلم بكتابة ما يوحى اليه من الذكر الحكيم ولا يحسن الترجي هنا لوضوح الحكمة في الامر بالكتابة بالنسبة للمرسل اليهم اما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد عصمه الله من نسيان القرآن عصمة مستفادة من قوله تعالى « سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله » فالصواب في التعبير اسقاط لفظ الترجي من الجملة بعده او عدم ذكر الجملة لان معناها معلوم بالضرورة

الصفحة الخامسة والستون

« ومنهم من رتب على حسب الطول والقصر وكذلك كان مصحف ابي وابن مسعود فكانا ابتدءا بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران وعلى هذه الطريقة امر عثمان رضي الله عنه بترتيب المصحف المدعو بالامام

لم ينقل الاستاذ ما يفيد ان الخليفة امر بترتيب السور على منهجهما اذ لو امر بذلك لكانت سورة النساء في مصاحفنا بين البقرة وآل عمران لا بعدها فهل يجوز

الإستاذ بمطيل الصحابيين امر الخليفة او لا يرى ذلك ويقول ان التغيير وقع فيما بعد من العصور وان مصاحفنا اليوم على خلاف ترتيب المصحف الامام وهذا بعيد جداً او مستحيل شرعا وعادة لانه حدث عظيم فلا يمكن ان يقابله علماء الدين والتاريخ بالاغضاء فما هو الرأي حينئذ ثم لو كان الامر متعلقا بسورة النساء وحدها لاستنجدنا التكلف واحتملنا مشقة التاويل في نسج جواب مهلهل كبيت العنكبوت كي نصحح كلام الإستاذ لكن الامر يتعلق بعدد كثير من السور قدمت في المصحف الحاضر على ما يطولها ففي الربع الاول قدمت « المائدة » على « الانعام » وفي الربع الثاني قدموا يونس على « هود » وفي الثالث قدموا مريم على « طه » والفرقان على الشعراء و «السجدة» على الاحزاب وفي الربع الرابع قدمت «الغاشية» على « الفجر » و « الانفطار » على « التطفيف » وبهذا يتبين ان نسبة الترتيب على حسب الطول والقصر الى امر عثمان رضي الله عنه لا يؤيده نقل ولا يوافق عليه عقل

الصفحة السادسة والستون

« عن ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم ان عمدتم الى الانفال وهي من المثانى والى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمان الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال فقال عثمان كان رسول الله مما ياتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذ اوكذا وكانت الانفال من اوائل ما انزلت بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت انها منها فقبض رسول الله ولم يبين لنا انها منها فمن اجل ذلك قرنت بينهما ولم اكتب بينهما سطر بسم الله الرحمان الرحيم فوضعتها في السبع الطوال »

يظهر ان مراد الاستاذ بسوق ما ساقه عن الترمذى عن ابن عباس اقامة الدليل على دعوى امر عثمان رضى الله عنه بترتيب المصحف الامام على مصحفى ابى وابن مسعود رضى الله عنهما ولكن ما ساقه غير مقيم لهاته الدعوى وغاية ما يفيده هذا النقل بيان سبب سقوط البسملة من اول « براءة » وهو اعتبارها تتمة لسورة « الانفال » لا غير واحسن ما يجاب به عنه ان يقال ان وقوع المنقول عن ابن عباس اثر الدعوى على امير المؤمنين عثمان لا يقصد به تاييدها وانما هو مجرد اقتضاب ولعله

يرضى بهذا بعد التأمل والغفلة والنسيان من شان الانسان هذا وقد شككت في كلمتي « مما » هل هما اثر تحريف من الناسخ الاول لكتاب الترمذي المنقول عنه كلام ابن عباس او من بعض الناسخين بعده وسبب الشك ان الجار والمجرور لا تتوقف صحة الكلام عليهما وفي سقوطهما دفع غموض واشكال وقد اثبت الف الرحمان تقليدا للاستاذ حتى لا اغير خطه كيفما كان ولولا قصد المحافظة عليه لحذفتها لوجوب سقوطها في الرسم التوقيفي والقياسي عند وجودها في البسملة فليتأمل

« وقال ابن بطال لا نعلم احدا قال بوجوب القراءة على ترتيب السور في المصحف بل يجوز ان تقرا الكهف قبل البقرة واما ما جاء عن السلف في النهي عن قراءة القرآن منكسا فالمراد منه ان يقرا من آخر السورة الى اولها انتهى »

في ترتيب السور على ما هو معلوم من مصاحفنا اختلاف على ما ذكر في الاتقان وما ذكر عن الباقلاني وابن عطية وغيرهما ونقله الاستاذ والذي يظهر بل يتحقق ان الخلاف دائر بين كونه من الرسول عليه الصلاة والسلام او من الصحابة المكلفين بترتيب المصحف الامام بادارة كاتب الوحي زيد بن ثابت رضى الله عنهم او بعضه منه صلى الله عليه وسلم وهو ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصل وما عداه منهم وعليه فلا شك في ان الترتيب شرعي ومقصود وثمرة وحي او اجتهاد نخبة من اصحابه مختارة من خليفته الثالث فاذا قدرنا جواز التنكيس خشينا ان ينتعش ابليس ، اذ لافائدة في الترتيب ولا ثمرة في التزامه فكلام ابن بطال الذي يظهر من الاستاذ اعتماده لذكره اثر كلام عائشة رضى الله عنها والختم الموضوع به باطل ان اراد بالجواز استواء الطرفين لانفي الوجوب فقط وهو الظاهر وما ساقه عنها مرويا عن البخاري قد يكون قبل حضور المصحف الامام على ان مذهبي مالك وابى حنيفة يكرهانه ولا ادري هل غيرهما مثلهما او يحرمه واذا كان الحال هكذا فالواجب ترك نقل كلام ابن بطال رحمه الله او تعقبه بالبحث والتمحيص كما فعل مع ابن رشد والشاطبي وعبد الحكيم والالوسي والسيوطي لكن الاتيان بالنادر محبوب وان كان غير مطلوب

الصفحة السابعة والستون

« والظاهر ان الصحابة سموا بما حفظوه عن النبيء صلى الله عليه وسلم او اخذوا لها اشهر الاسماء التي كان الناس يعرفونها بها ولو كانت التسمية غير

ما ثورة فقد سمى ابن مسعود القنـوت سورة الخلع والخنع كما مرقتغين أن تكون التسمية من وضعه واسماء السور اما ان تكون باوصافها مثل الفاتحة وسورة الحمد واما ان تكون بالاضافة لشيء اختصت بذكره نحو سورة لقمان ويوسف والبقرة، واما بالاضافة لما كان ذكره فيها او فى نحو سورة هود وسورة ابراهم واما بالاضافة لكلمات تقع في السورة نحو سورة براءة وسورة حم عسق وسورة حم السجـدة كذ اسماها بعض اهل السلف وسورة فاطر وسموا جميع السور المفتتحة بكلمـة حم ءال حاميم .

واحسب ان الصحابة لم يثبتوا بالمصحف اسماء السور بل اكتفوا باثبـات البسملة في مبدا كل سورة علامة على الفصل بين السورتين وانما فعلوا ذلك كراهة ان يكتبوا في اثناء القرآن ما ليس بآية قرءانية فاختاروا البسملة لانها تجمع معانى حسنة مع كونها ءاية من القرآن »

التسوية بين احتمال ان التسمية ما ثورة عن النبيء صلى الله عليه وسلم وبين كونها ما ثورة عن مطلق الناس لا تطمئن اليه النفس لان نـاس ذلـك العصـر لم تعمهم الصحبة واكثرهم عوام فلا تعتمد عليهم الصحابة ولا يصح تنزيل الصحـابـة منـزلة من يقلدون عن غيـر مستند متين ومن اذا قيـل لهم عن شى قـالـوه او فعلوه « ما سندكـم » « قالوا قال الناس فقلنا او فعلوا ففعلنا » فهم فوق ما نحن عليه بكثير وتسمية ابن مسعود القنوت سورة الخنع والخلع لا ينافي ما قلناه لانه من اعيان الصحابة وعلمائهم وقول الاستاذ « واما بالاضافة الخ » غير مفهوم الا عنـد حذف كلمتى « او في » فلعلها سبق قلم دفع اليه الاسراع وقوله « حم السجـدة » غلط او سبق قلم ايضا لان هذه السورة لم تكن من القسم الذى عطفت عليه بل من القسم الذى قبله لانها ذكر فيها قوله تعالى « واسجدوا » الاية حيث يطالب عندهـا السجود ونسبة التسمية الى اهـل السلف غير مسلم لانهـا وقعت من بعضهم لامن بعض اهلهم كما في « الاتقان » وانما قلنا هذا لانها لم تقع مضافة لكلمة بعد فاتحتها كـ « حم عسق » ومما يلفت النظر حسبان الاستـاذ ان الصحابة لم يثبتوا بالمصحف اسماء السور وتعليله لذلك مشكل فان في كون البسملة ءاية خلافـا بين الصحـابـة انبنى عليه خلاف بين الائمة ولم تتفق الصحابة على قرآنيتها الا في سورة «النمل» فكان على الاستاذ ان لا يغفل هذا حتى لا يستشكل المالكيون كراهتها في صـلاة الفرض ثم عدم اثبات الصحـابة اسماء السور في المصحف لا يسلم الا بالنقـل لان الاصل ان لا يرسم فيه بعد انقراضهم الا ما اثبتوه فاتهام الامم الاسلامية بالتواطوء على المخالفة في مثل هذا مدعاة للتشكيك فيما هو اهم ولسنا في حاجة الى هـذا

الحسبان الخالي من الجدوى ولا محذور في اعتقاد ان ذكر اسم السورة في المصحف من وضع الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين

الصفحة الواحدة والسبعون

« مثال ذلك ما رواه ابو سعيد بن المعلى قال دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا في الصلاة فلم اجبه فلما فرغت اقبلت اليه فقال ما منعك ان تجيبني فقلت يا رسول الله كنت اصلي فقال الم يقل الله تعالى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم فلا شك ان المعنى المسوقة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال كقوله الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما اصابهم القرح وان المراد من الدعوة الهداية كقوله يدعون الى الخير وقد تعلق فعل دعاكم بقوله لما يحييكم اى لما فيه صلاحكم غير ان لفظ الاستجابة لما كان صالحا للحمل على المعنى الحقيقي ايضا وهو اجابة النداء حمل النبيء الآية على ذلك في المقام الصالح له بقطع النظر عن المتعلق وهو لما يحييكم ».

انى اقسم بالله انه لو صدر هذا من المفسرين ابن جرير ، والقرطبي وصاحب الكشاف والرازى وابن عطية وابن جزى والالوسي والبيضاوى وغيرهم لاستعذنا بالله عند سماعه وعددنا تكليفهم لنا باعتقاده من البلاء المبين وحوقلنا واسترجعنا وهممنا ان نضرب به الهواء ونلحقه بالهباء ولكن الله سلم وعندئذ فلا اقل من ان نقول عش رجبا ترعجبا ايحمل الرسول عليه الصلاة والتسليم وعلى آله وصحبه صاحبه الجليل وهو ابى بن كعب على الاشهر او سعيد بن المعلى على ما ذكر الاستاذ ان يلقى من لفظ القرآن ما يتقوم به معناه الظاهر او الخفى وان يشتت شمل كلام الله فيحذف منه تقديرا اربع كلمات بل ستا ليفهم ان الدعاء في الآية مراد به النداء لا الارشاد وان الاستجابة مراد بها الاجابة باللفظ كقول نعم او بالفعل وهي الاقبال على المنادى وان الصحابي لا يمكنه ان ينزل على مراد الرسول من الآية الا بتقدير « لما يحييكم » معدوما كي ينال المرغوب فيه من الفهم سبحان الله فما لنا ولهذا التكلف الثقيل والمرعى الوبيل واي مانع من ان نقول غفل عن الآية او لم يغفل ولكنه فهم المعنى الظاهرى وهو الامتثال عند دلالته لهم على الخير ولم يحضره الخفى عند المناداة لغيبوبة قلبه في الصلاة والرسول عليه الصلاة والسلام بين له المعنى الخفى بالنسبة للمتبادر وان هذا المعنى الخفى مستفاد من الآية ومدلول لها بنوع قطع ووصل وتقدير بعض الفاظها معدوما وقد قال الله تعالى

لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاه المفهوم منه ان دعاءه لهم دلالة على الخير واجابتهم له طاعة لله وان لم يكن هذا المفهوم صريحا فلا اقل من ان يكون مستفادا بطريق الاشارة وقد ذكر الفقهاء ان اجابته صلى الله عليه وسلم في الصلاة لا تبطلها بل تجب على المصلي لمعنى لا يخفى على اللبيب هذا وقد ذكرتني مطالعة كلام الاستاذ في هذا الموضوع حكاية مرت عليها السنون وهي ان رجلا صلى العصر باحد الجوامع ثم رأى فقيها يلقي درسا فسأله هل له ان يصلي نفلا فقال الفقيه لا تصل بعد العصر وقبل المغرب نفلا فتطلع آخر قائلا له اما سمعت قوله تعلى « فويل للمصلين » فزجره ذلك الفقيه بقوله لا لزوم لهذا الخبط فقد اجبته بما فيه مقنع فالزم السكوت فرد عليه بقوله انك اجبته

بما تضمنه من علم الفقه وانا اجبت بما احسن من علم البلاغة التي يجب فيه مراعاة مقتضى الحال فقلت ما اشبه الليلة بالبارحة والغادية بالرائحة وما ضرنا لو قلنا ان الهداية والنداء صالحان ان يتعلق بهما « لما يحييكم » وان نداء الرسول هداية للاجابة امتثال ولو تغايرا مفهوما وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب

الصفحة الثانية والسبعون

« ونحن في تفسيرنا هذا اذا ذكرنا معنيين فصاعدا فذلك على هذا القانون واذا تركنا معنى مما حمل بعض المفسرين عليه في آيات القرآن فليس تركنا اياه دالا على ابطاله ولكن قد يكون ذلك لترجح غيره وقد يكون اكتفاء بذكره في تفاسير اخرى تجنبا للاطالة فان التفاسير اليوم موجودة بين يدي اهل العلم لا يعوزهم استقراؤها ولا تمييز محاملها متى جروا على هذا القانون »

لا شك في ان الاستاذ لا يريد بمسلكه المبتكر ايقاع من سيطالعون تفسيره في حرج ولكنهم سيقعون فيه بالفعل لان من يرى في كلامه معنى اقتصر هو عليه ولم يذكر غيره ثم جدلته نفسه بمعنى آخر يصح ان يكون مراد احدثت به نفسه امر ذلك ايضا بشيء آخر وهو هل ان اعراض الاستاذ عنه لبطلان ارادته او ضعفها او لذكره في احدى التفاسير الاخر وهي كثيرة فيعسر عليه التحرير ويرتد الطرف عنه وهو حسير وانا لنتوجس خيفة من كلام المؤلف فانه يشعر مطالعي تفسيره المنتظر بالعزم على حرمانهم من النقل عن بعض ما حوته مكتبته من التفاسير التي لم تطبع ولم توجد عند خواص العلماء وهي بين يديه وفي كنفه وانا لنا امل ان يجود علينا في تفسيره بتلك الجواهر المكنونة في اصدافها وان لا يعتمد على اعتقاد امتلاء الايدي بها فانه وهم حمله عليه القياس على نفسه فالحقيقة ان اهل العلم

مفتقرون الى الاطلاع على بعض التفاسير التى تحويها تلك الخزانة الكبرى صانها الله بواسطة تفسير الاستاذ لانها اما خاصة به حقيقة واما خاصة به حكما وقد كدح احدهم في استعارة المرزوقى على ديوان الحماسة حتى كل ويئس لهذا نرجو منه العدول عن هذا السبيل وعن هذا الظن ولنتمسك تلقاءه بقول ابى الطيب :

اعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

اذ لا فائدة في ظن الغنى عند الفقر والايسار عند الاعسار ثم انى لا انسى الاعتذار عن الاستاذ في سلوكه المترقب المبنى على كره الاطالة فيما اطال فيه غيره من سلف المفسرين وخلفهم بانه اراد التفرغ لذكر ما فتح الله به عليه مما اساءوا فهمه وانى اسال الله تعالى ان يطيل عمرى حتى اطالع تفسير الاستاذ

وان لحقت بنا ايدى المنايا فكم من حسرة تحت التراب

وفي ختام هذا التعليق نرجو من الاستاذ متعلقين باذياله باكين ومسترحمين ان لا تكون بدائعه من النوع الذى ذكره في المقدمة الخامسة الذى اخرج به امة الاجابة من وعيد سورة المائدة بلباقة لا تستغرب من جنابه ولا تفقد عند بابه

الصفحة الثالثة والسبعون

« فاردت في هذه المقدمة ان الم بكم المامة ليست كخطرة طيف ولا هى كاقامة المنتجع في المربع حتى يظله الصيف وانما هى لمحة ترون منها كيف كان القرآن معجزا وتتبصرون منها نواحى اعجازه وما انا بمستقصى دلائل الاعجاز في احاد الآيات والسور فذلك له مصنفاته وكل صغير وكبير مستطر ثم ترون منها بلاغة القرآن ولطائف ادبه التى لم يتحد بها العرب تحدى اعجاز وانما هى فتح لفنون رائعة من ادب لغتهم حتى ترون كيف كان هذه القرآن فتح بصائر وفتح عقول وفتح ممالك وفتح ادب غض ارتقى به الادب العربى مرتقى لم يبلغه ادب امة من قبل وكنت ارى الباحثين ممن تقدمنى يخلطون هذين الغرضين خلطا وربما اهملوا معظم الفن الثاني وربما الموا به الماما وخلطوه بقسم الاعجاز وهو لما كان امرا مبتكرا لا يصح في حكم العقول ان يقع به التحدى وان هذا الفن الثانى هو الذى يحق ان يكون البحث فيه من مقدمات علم التفسير لان في الاعجاز بعلم اصول الدين اعلق وان علاقة هذه المقدمة بالتفسير هى ان مفسر القران لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغا حد الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آية المفسرة بمقدار ما تصبو اليه الهمة من

تطويل واختصار فالمفسر بحاجة الى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي وخصائص بلاغته وما فاقت به آي القرآن في ذلك حسبما اشرنا اليه في المقدمة الثانية لئلا يكون المفسر اذا اعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر فمن اعجب ما تراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول الى هذا الغرض الاسمى الا عيون التفاسير فمن مقل مثل معانى القرآن لابى اسحاق الزجاج والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الاندلسي ومن مكثر مثل الكشاف ولا يعوز في الخلو عن ذلك الا التفاسير التى نحت ناحية خاصة من معاني القرآن مثل تفاسير احكام القرآن على ان بعض اهل الهمم العلية من اصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العلق النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب احكام القرآن لاسماعيل بن اسحاق بن حماد المالكى

تتخلل من كلام الاستاذ امور لا بد لعابر السبيل من الالتفات اليها بلمحة وان كانت دون لمحته قصرا عملا بقولهم ما لا يدرك كله لا يترك قله اولها انه يشرق نور بيانه على اعجاز القرآن فيتجلى كما يتجلى البدر ليلة اربعة عشر ثانيها ان محاسنه قسمان قسم له دخل في الاعجاز وقسم لا دخل له فيه ثالثها انه لا يذكر ما له دخل لانه يابى الخلط والمزج فهو من متعلقات علم العقائد وان ذكره الخالطون فليس عليه تقليدهم وجعلهم له قدوة رابعها انهم اساءوا في هذا الخلط ولم يحسنوا قواعد التفريق وانا تلقاء هذا لا يحسن عندى الا ان اصارح الاستاذ بانى وجدت نفسي بعد التامل من منطوق هذه المقدمة ومفهومها مثل ما كانت عليه قبلها ان خيرا فمستقر وان شرا فمستمر وبانى لا ارى خيرا في هذا التقسيم ولا مبنى فيه ولا جدوى فيه فالقرآن معجز بمجموع محاسنه من الفاظ ومعان وهيئات تركيبية وتاثيرات في النفوس ربانية تحصل عند تلاوته او استماعه وبان من لم يسموها الى ما قسمها الاستاذ راوا ان ذلك اعتناء بحفظ القشور ملهه عن اغلاء الالباب واعلائه فان افضل ما تتحلى به النفوس البارة الكدح في حمل الناس على العمل لا التزويق بوجه والاعراض عن العمل حتى كادت الامة ان تشبه من نزل في شانهم قوله تعالى « وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون الا انفسهم وما يشعرون وان يحض بوعيد التحذير في قوله جل شانه « فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم » اي امر النبيء صلى الله عليه وسلم وبعد فان قول الاستاذ انه سيبصر الناظر في لمحته حالة فتح القرآن للبصائر والعقول والممالك وايجاده ادبا غضا ارتقى به الادب العربي جوزه سامعوه ولم ينكر احد منهم انه في مقدرة الاستاذ اما العالمون به من قبل فقد قال حالهم

وحدثتني يا سعد عنهم فزدتني   هياما فزدني من حديثك يا سعد

واما الجاهلون به وقليل ما هم فهم اليه اشوق واتشق والطلب واطرب واما قول الاستاذ ان الادب العربي بلغ بالقرءان بلغ درجة لم يبلغها ادب امة من قبل فهو معلوم بضرورة لان كلام الخالق فوق كلام المخلوقين وما يستمد منه اقوى مما يستمد من غيره اما الكشف عنه لمن يطلعون على هذه المقدمة الخامسة كشفا تفصيليا فهو مستحيل على من لم يعرف جميع اللغات ويطلع على جميع آدابها فالوعد به عندئذ من اللغو المحمود تركه ثم ان مقت الاستاذ لمن لم يتعرض لدقائق البلاغة ووجوه الاعجاز من المفسرين وتحقير صنيعهم ونسبتهم لانحطاط الهمة حملنا على الظن بانه سياتي بما لم تستطعه الاوائل فاذا هو ذاكر ما غالبه منصوص في كتب عياض والباقلاني والسيوطي وغيرهم واذا مترجم القرآن ابن عباس مبعد عن المفسرين ذوى الهمم العلية ودآخل في التراجمة المحتقرين وهنا نطلب من الرحمان ان لا يرفع هممنا حتى تجتاز دائرة الامن فتقع بمخالب الخسران ولنختم هذا التعليق ونقول ان بعض المفسرين كابن عباس وذي الجلالين وابن جزي والقرطبي والجصاص وابن العربي والخازن والرازي والالوسي وغيرهم ممن لم يتعرضوا لما يريد الاستاذ ان يجعلوه نصب اعينهم قد اقتصروا على بيان ما في قدرهم مؤملين ان يكمل ما فاتهم من ياتي بعدهم ويكفيهم فخرا دنيويا واخرويا توجه نفوسهم الى خدمة كلام الله وان قصروا في نظر الاستاذ وسموا تراجمة فلا ضيرو المامول ان يجازوا بالجزيل من الجليل وخلوص النية والبناء على غير الدنيويات ينفع العباد ويشرق المعاد

الصفحة السادسة والسبعون

« هذا ملاك الاعجاز بحسب ما انتهى اليه استقراؤنا اجمالا ولناخذ في شي من تفصيل ذلك وتمثيله »

لا يسعنا هنا الا شكر الاستاذ اذ ذهب مذهب المفسرين وسلك سلوكهم في بحث الاعجاز بعدما انتقده بانهم ادخلوا في التفسير بحث ما يجب ان يناط بعلم العقائد لانه اعلق بها منه بعلم التفسير فهو رجوع عملي وهو ابلغ من القولي واجدى منه لكن هذا لا يمنعنا من عتابه على التقصير في التوسع بالكلام على المحاسن القرآنية صاحبة الاولوية بالذكر في علم التفسير وذكر الفروق بينها وبين ما وقع به التحدي بالحد الجامع المانع او الحزر على الاقل ولعل السر في الترك ان جلها في علم البديع وهو معزوف ممن تاهلوا لمطالعة التفسير فاحالهم عليه باشارة ربما كانت ارق من النسيم واعذب من التسنيم يغني فيها كثقاء الطبع

وهم لا يشعرون وفي خلاصة ما ذكره القاضيان عياض والباقلاني في كتابيهما الشفاء والاعجاز كفاية لعلها تواردت عليها الخواطر فوسعها استقراؤه

« قد خصوا من بين الامم بقوة الذهن وشدة الحافظة وفصاحة اللسان وتبيان المعاني فلا يستصعب عليهم سابق من المعاني ولا يجمح بهم عسير من المقامات »

تخصيصهم بهاتين وادعاء انهما لا يقويان في غيرهما من الامم قوتهما فيهم لايقبل الا بتوقيف من معصوم واما غيره فلا لان استقصاء جميع الامم والموازنة بينهم والجزم بان الله لم يمنحهم ما منح العرب متعذر لسببين احدهما قصر الاعمار عن ان تسع الاطلاع على جميع مواهب من في الارض وتقويمها ثانيهما ان النبوغ المدهش ظاهر في كثير من الامم الذين ليسوا بعرب وهذا الاعتراض نوجهه على الاستاذ اشد منه على غيره لانه ممن ارتفعت هممهم العلية لتنوير الفكر الجديد وهو لا يقبل مثل هذا وربما كنت من انصاره فيه مع اني من صميم العرب ولست شعوبيا ولكني اخشى اذا استمررنا في تيهنا واعجابنا واطلاق العنان لالسنتنا ان يصدق علينا قول ابي الطيب

وعلاج العقول اعسر برءا حين تعتل من علاج الجسوم

« قال الله تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »

ظننت اولا ختم المقدمات بهذه الآية ثم قلت في نفسي لعله سقط منها شيء في المطبعة اوضاع لانه بقي على الاستاذ الوفاء بما وعد به في صفحة ٧٣ حيث قال فاردت ان الم بكم المامة الى آخر ما قال ولانه جرت العادة في التآليف ان تختم بالصلاة والسلام والحمد لخالق الانام ثم قلت لعله سها فاقتصروا راد ان يحج فاعتمر وبينما انا مفكر اقلب الاوراق فاذا بصري واقع على هذه العبارة « بقية المقدمة العاشرة تاتي في صفحات موالية » فقلت لمن حولي الآن تحقق النقص فهل يقع الوفاء الذي هو من اخص شيم الاستاذ وابرزها واشهرها او تحول دونه الغفلة وعدم التذكير فصاح بي مستمع شبه متجسس قائلا ؟ ما هذه المماكسة ؟ فهل يجب على الاستاذ ان يؤلف لتستفيدوا فقلت لم اقل هذا وانما شككت في انجاز الوعد فقال ما احراك بان لا تتجاوز منزلة من تلطف في انجازه قائلا لمن وعده

واني جدير ان بلغتك المنى وانت بما املت منك جدير
فان تولني منك الجميل فاهله والا فاني عاذر وشكور

فقلت يا اخي ان قائلهما مادي وكف النفس عن النهمة المادية مرغب فيه

اما النهمة العلمية فمحمودة فقال قد استفدت من المقدمات ما يساوى ثمنها مائة مرة فقلت بل اكثر لانها اهديت الي وسا نزل على رغبتك وآمل ان ينتهى انتظاري بقول الحريرى

انجز حر ما وعـــــــد وسح خال اذ رعـــــــد

لا بقول الآخر

اماني من ليلى حسان كانما سقتنا بها ليلى على ضما بردا
منى ان تكن حقا احسن المنى والا فقد عشنا زمنا رغدا

كما اني ارجو من الله الظفر بمحاضرات الشيخ العلامة عبدالعزيز جاويش رحمه الله في الموضوع الذي وعد به الاستاذ واغفله لا تسلى بها مدة الانتظار ثم فليعلم الناقمون اني معترف بضعف جهدي وقصوري عن بلوغ عشر العشر من رتبة من اردته بنقدي ولكني شبيت واكتهلت وشخت ولعا بقول النظام عفى الله عنه لا ينبغي للمرء ان يصغر عن ان يقول ولا ان يكبر عن ان يقال له فلذلك ام اكثرت بقول البعض عندما سمع صدى « البشر في نقد المقدمات العشر » اين البرغوث من الفيل والنقرة من النيل والدردانيل اذ لا عار على مريد محاورة الاعلام بعد ما شغله طلب القوت عن التحصيل على ما تزينوا به من در وياقوت والناس في ميدان الطلب سابق ولا حق وساقط ولا فخر عند العقلاء الا بما يقرب من الله: قال تعلى « فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » ورحم الله من قال

وكل وجد ان حظ لا ثبات له فان معناه في التحقيق فقدان

هذا واني ارجو من الاستاذ اجله الله ان لا يواخذني بما جاش به صدرى واعتقدته حقا وليذكر في التماس العذر قول امام دار الهجرة كلكم راد ومردود عليه الا صاحب هاته الحجرة كتبه بيده الفانية فقير ربه واسير ذنبه وختمه يوم الجمعة تاسع رمضان سنة ١٣٧٢ مؤلفه عثمان بن منصور غفر الله له ولوالديه واخوانه المؤمنين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

بقية من بعض الواجبات

الحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد فاني لم اجد بدا تلقاء الحاح الاصدقاء من نشر هاته القصيدة التى كنت قدمتها لاحدى المجلات التونسية مهنئا فيها من تقلد واخطط شرعية كبرى وهم العلماء الاعلام ساداتنا صالح المالقي والطاهر ابن العاشور وعبد العزيز جعيط والناجي بن مراد ومحمد عباس ومعرضا بسخافة من تصدى للطعن في الجامع الاعظم وتعاليمه والمنتسبين اليه في الجرائد الافرنجية قاصدا الشهرة والتحقير والتنفير وختمتها بالفات نظر الملك الذي هو من اعظم نعم الله على الخضراء حفظه الله من كل بلاء الى تسهيل امر الغسل على طلبة العلم وقد قدمتها بواسطة احد فضلاء المدرسين فعرضها ثم ردها على لاسباب منها ان المجلة لا تنشر لغير مدرسي الطبقة العليا وانها تشم منها رائحة الرجعية والنفور من التغير المعزوم عليه والاساءة الى نصير الفكر الجديد الطاعن المحقر المنفر المقرب عندهما ولو كان امر المجلة بيدمديرها الظاهر المجازي لمابخل بالنشر ولكن امرها بيد المديرين الحقيقين المتواريين خلفه وقد قبلنا العذر المفهوم رغما عنا وهذا نص القصيدة :

مجد البلاد اذا طلبت متونه	فتش تجده بجامع الزيتونة
لم تنخذل يا اهل افريقية	ما شاء ربك ان يديم عيونه
قد فاض غوثا بالهداية والتقى	صان الاله شروحه ومتونه
واهدى الرياح الهوج نورا ما اختفى	مستخرجا من بحره مكنونه
يلقى الإمان الى الذي يجتازه	مما يعطب نفسه وسفينه
لكن محجوب البصيرة راكب	عمياء يامل ان تطيل قرونه
يا ويله مستنقصا ابناءه	اخزى المهيمن دسه وطنينه
وازداد قمعا اذ تولى امره	شيخ يجمل كهله وجنينه
فيه من الحزم الصريح لبابه	ومن النزاهة يستمد معينه
بحر له في كل علم رتبة	بالنقد تنخل غثه وسمينه
زان ابن عاشور مراتب جمة	والعلم يرقم الفه وقرينه
يا طاهرا حظ بالرعاية جامعا	حتى يلابس فرضه مسنونه

لولاك لاجتاحته فرقة صالح ... رجل يمهد سهله وحزونه

اغرى به الديوان سابق فضله ... فشفى التنقل شوقه وحنينه

بشراك يا عبد العزيز بخطة ... وبجهبذ مرن يمد يمينه

واذ اختصرت اقول مثلك بيننا ... نيل يفيض على البلاد معينه

وكذلك الناجي وعباس فقد ... طفحا بفضل املا تدوينه

وطن اراد الله احسانا له ... فهدى الامير معزه وامينه

فاختار من خير الافاضل خمسة ... ركبوا النهي وسيصدقون ظنونه

شملتهم البركات عند رضائه ... صان المهيمن جمعه وبنينه

يامن به امن البلاد مقارن ... والهول ادبر واسترد رنينه

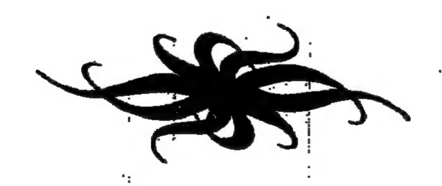
حلم من المولى ولطف بارز ... ما شاء ربك ان يطيل سنينه

تلميذ علم الدين من مرغوبه ... امر فروضه تقتضي تكوينه

ما دام اجر الغسل حتما بذله ... يشتد عسره او يوهن دينه

فاختر رعاك الله خير طريقة ... مثلى تريح عناءه وانينه

خير المكاسب ما يقدم حازم ... من سعيه يرجو السعادة دونه



اصلاح الخطا

صفحة	سطر	خطا	صواب
٦	٣	اقتعل	افتعال
٦	٨	بن	ابن
٦	٩	حتد	يعتقد
٧	١٠	سنة	سنه
٨	٢٣	وفي رأي	وانا ارى
١٢	١١	حنبل ولا	حنبل عجيب ولا
١٤	٢٦	تزيلها	تنزيلها
١٤	٦	اخبار	اخبارا
١٩	٢٠	والتربص	وليتربص
٢٠	١٤	لتيين	لتبين
٢١	٢٥	يرفع	يرجع
٢٤	٢٥	الا	لا
٢٧	٨	نظرا	نظار
٢٨	١٤	للامتين	للاميين
٢٨	١٨	اليتم	اليتيم
٣٠	١٢	ذكر صار	ذكر ان صار
٣١	٢٠	فاذ	فاذا
٣٢	٢	التلى	ابتلى
٣٢	٣	ابتى	التي
٣٢	٢	للنافع	للمنافع

صفحة	سطر	خطا	صواب
٣٣	١٤	استبيادا	استبعادا
٣٣	٢٠	العيون	العيوب
٣٥	١	حضره	حذره
٣٥	٤	يتظلب	يتطلب
٣٥	٢٩	ذكرى	ذكر
٣٦	١٢	العلماه	العلماء
٣٧	٢	بدن	بدون
٣٧	٩	اكتو	اكتسوا
٣٧	٢٣	الحديث وقدماء واعداء	الحديث واعداء
٣٩	١	شاه	شاء
٣٩	٩	شغفى	شغفن
٤٠	٥	الذين هادوا	للذين هادوا
٤٠	٨	والانف والاذن	والانف بالانف
٤٠	١٠	بماقي يديه من يديه	بما بين يديه من التورية
٤١	١	مجررحا	مجروحا
٤١	١٦	وتقليد	وتقليدا
٤٢	٣	وضعف	وضعفا
٤٣	١٤	قروا	قرأوا

صفحة	سطر	خطـا	صـواب
٤٧	١٣	المبلى	المبنى
٤٧	١٢	تحويزه	تجويزه
٤٧	١٦	الا	الى
٤٧	٢٦	ثير	لكثير
٤٧	٢٦	المشتركين	المشركين
٤٨	٢٦	جارية ان بجرى	جارية بجرى
٤٨	٢٥	تقع	تقنع
٤٨	٢٧	البيت عقاله	البيت ان علقه
٤٩	٣	ولآاخرون	والآخرون
٤٩	٢٧	الاعتساق	الاعتساف
٥١	١٧	الدنياويات	الدنيويات
٥١	٢١	وليمكن	وليمكنن
٥٢	١٣	واصحاب	اصحاب
٦٠	٢٧	في	فن
٦١	٢٥	بنهون	ينهون
٦٢	٢٠	استقراؤ:	استقراؤنا
٦٤	٧	حقا احسن	حقا تكن احسن
٦٤	١١	عفى	عفا
٦٤	١٧	الحنة	الجنة
٦٥	٥	العاشور	عاشور